يوزع مجاناً مع مجلة الرافد – اصدارات دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة

الرافد

كتاب 12

المُمانَعَة

إرنستو ساباتو

ترجمة وتقديم:
أحمد الويزي

العدد 012 – ديسمبر 2010

بعد أن فاضت «الرافد» باتساقاتها مع سؤال الوعي والثقافة، وأصبحت مفرداتها مشمولة بالذاكرة المعرفية العربية والإنسانية، وتداعت ملفاتها الشهرية مع أبرز القضايا والمواضيع الإشكالية في سؤال الوعي والوجود، ومعنى القامات والإنجازات.. ها هي تواصل درب العطاء النوعي من خلال تكريس كتابها الشهري المترافق مع العدد، وذلك ابتداءً من يناير 2010 ليكون رافداً من روافد الرسالة، وفضاء متجدداً للإقامة في أزمنة الفكر والفن والثقافة، وساحة إبداع تتسع له الرؤى والمقاربات، والحضور الناجز للثقافة العربية من الماء إلى الماء.

العدد 012 – ديسمبر 2010
يصدر مجاناً مع مجلة الرافد

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة
ص.ب. 5119
هاتف : 9716/5671116+
بـراق : 9716/5662126+
www.arrafid.ae

* المواد المنشورة تعبر عن كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي دائرة الثقافة والإعلام

وكـلاء التـوزيـع : دولة الإمـارات العربيـة المتحـدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع، دبي: ت: 04/3916501، قطر: دار الثقافة للطباعة والصحافة والـنشر والـتـوزيع: ت: 414482 البحرين: دار الهلال للتوزيع ت: 534561-05355590، اليمن: دار القلم للنشر والتوزيع والإعلام صنعاء: ت: 272562-0272563، المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة «سربيس» الدار البيضاء: ت: 249200 ، مصر: مؤسسة أخبار اليوم : ت:5782700 ، سوريا: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.

www.booksall.net

إرنستو ساباتو

المُمانَعَة

ترجمة وتقديم:
أحمد الويزي

www.booksall.net

إلى إليفيرا غونزاليس فراغا،

الّذي ساهَم مَعي في بَلورَةِ هذا النَّص،

وظل يَمُدُّني على الدّوام،

بالعَوْن والمُساعَدة،

طوال عِدّة أعوام...

مَع أعمقِ المشاعر.

www.booksall.net

مقدمة المترجم

1) اشتهـر الكاتـب الأرجنتينـي الكبيـر إرنستـو ساباتـو Ernesto Sabato[1] عندنـا، بالكتابـة الأدبيـة أكثر مما اشتهر بكتاباته الفكرية ذات المنحى التأملي الفلسفي، على الرغم من أنه كان قد كتب منذ وقت مبكر، مجموعـةً مـن المقـالات التأمليـة والنقديـة، التـي غلـب علـى بعضها الطابـع السجالي، فـي الخمسينيات والستينيـات من القـرن العشرين[2]،

وذلك حتى قبل أن تكتمل ثلاثيته الروائية ذات الانتشار الواسع[3]، وتصدر محاورتاه الممتعتان مع كل من خورخي لويس بورخيس J. L. Borges، وكارلوس كاتانيا C. Catania[4]، وقبل صدور مذكّراته الأخيرة[5]، بوقت كبير.

لقد كانت تلك الكتابات المقالية، ذات المنحى الفكري والنقدي، حصيلةَ مسلك طويل وشاق، في مشوار الكتابة والالتزام الفكري، قطعه إرنستو ساباتو وهو يراوح بين مواقع متباينة المنطلق، غير أن منتهاها واحد ووحيد؛ وهو الأمر الذي جعل مشواره يبقى على الدوام، مشواراً معرفياً متكاملاً ومتواشجاً، بعضه يعضّد البعض الآخر، ويقوي تفريعاته وتنويعاته، بدل أن ينقضه ويتناقض معه، خاصة أنّ فيه موقع العالِم، وموقع الأديب، وموقع الفنان التشكيلي، والمفكّر، والصحفي، والمناضل السياسي، والحقوقي. وبذلك، ظلّ هذا المسلكُ المتعدّد، الذي اجتازه ساباتو في رحلة تكوينه، وإنتاجه الأدبي والفكري، أرضاً خصبة بامتياز، ما انفكّت تنفتح على قدْر كبير من مظاهر التّعدد والتنوع، وهو الشيء الذي جعل السير على أديمها، قد اقترن عند الرجل بمحطات شاقة وملتوية، بقدر ما هي مغرية وممتعة كذلك، لعبتْ فيها إرادةُ الكاتب من جهة،

والصدفة العارضة من جهة أخرى، أدواراً شتى لا يستهان بها.

لقد حظي إرنستو ساباتو، سواء خلال مساره التكويني الأول، أو على امتداد مرحلة عطائه الطويل والمتعدّد، باتصال مباشر بأهم التيارات العلمية والإيديولوجية والفكرية والفنية، التي ميّزتْ القرن العشرين عن غيره من القرون السالفة، وبَصَمتْ دمغته الفريدة؛ مثلما حظي بشرف الاحتكاك بأهمّ الوقائع التاريخية العصيبة، وبأقوى الصراعات الاجتماعية والسياسية، سواء تلك التي عرفتها القارة اللاتينو – أمريكية ككل، أو تلك التي تفاعلت في قلب بلاده، وهو ما كان له أثر حاسم، على مستوى إشباعه الفكري والوجداني من جهة، وعلى مواقفه وكتابته من جهة أخرى، وهي تلك الكتابة التي ظلت عنده، مفتوحة على التعدد المدهش.

2) بدأ إرنستو ساباتو متخصصاً في الفيزياء الدقيقة، التي حصل فيها على درجة الدكتوراه، دون التفريط في الفلسفة، والنشاط الأدبي والفني، والانخراط السياسي ضمن اليسار الأرجنتيني. إذ ما إن أنهى ساباتو مرحلة التخصص الجامعي ببلاده، مطلعَ ثلاثينيات القرن الماضي، حتى عزم على شدّ الرحال إلى موسكو، لتعميق معرفته بالعلوم الفيزيائية والمادية

الجدليــة كذلك، لكنه سرعان ما عَدل عن الفكرة مباشرة، بعد أن وصل إلــى مدينة بروكسيل البلجيكية، التــي سافر منها إلى فرنسا لاكتشــاف باريس، ثــم ليقفل راجعــا إلى الأرجنتيــن، في انتظار الحصــول على منحــة دراسية للعــودة إلى عاصمة الأنــوار، التي أغرتــه كثيراً، بحكــم كونها ظلت تلعب علــى المستوى المعرفي والأدبــي والفنــي، دورَ القاطرة الطلائعية بامتيــاز، وهو ما كان له سحره وجاذبيته الفاتنين، على النفوس الطموحة.

أقــام إرنستــو ساباتو في باريــس مدة سنتين كاملتيــن، بعد أن حصــل على منحــة دراسيــة عليا. وهنــاك، قضى مرحلــة تكوين جديــدة، أهم مــا ميّزها هــو كونها ظلــتْ طوال مكثــه بباريس، موسومة بالانخراط الشغوف فــي سياق النقاش العلمي والفكري والفني، الذي وسم المرحلة بميسم خاص.

لقد تميّزتْ إقامة ساباتو الباريسية، بكونها ظلت مفتوحة على واجهتيــن معرفيتيــن: واجهــة نهاريــة انخــرط فيها ضمــن مسار التخصّص الدقيق فــي الفيزياء الكميّــة والنسبيــة، بمعهد كوري الشهير بباريــس Institut Curie، وواجهــة مسائية وليلية مفعمة بسؤال الفكر والفلسفة والأدب والفن، أمسى يلتقي أثناءها مع ثلة مــن المثقفيــن والأدبــاء، منهــم السرياليــون والوجوديــون

والماركسيون، فاحتك بتصوراتهم، وبمنجزهم الفكري والفني والأدبي.

وإذا لم تكن إقامة إرنستو ساباتو الباريسية سوى إقامة عارضة، لم تمتد طويلاً في الزمن، فإنّ أثرها فيه بقي كبيراً مع ذلك، إلى حدّ أن أحد النقاد قد شبّه أثر تلك الإقامة الطارئة في وجدانه وفكره[6]، بطقسٍ عبورٍ ظلّ حاسماً[7]، على امتداد حياته كلها، لأن الأسئلة التي تشبّع بها في تلك المرحلة، ساهمت بعمق حضورها وأصالتها في فكره ووجدانه، في جعله يعيد النظر في العديد من القناعات والانشغالات – التي استحوذت عليه ككاتب بالقوة – لينحاز بعد ذلك إلى الكتابة كممارسة فعلية، وينخرط بالفعل في سياق سيرورتها، ما تبقّى له من العمر، متخلياً بذلك عن تخصّصه العلمي الدقيق، لفائدة معرفة أخرى بدتْ له أهم وأولى، وهي: المعرفة التخييلية.

بعد الإقامة الباريسية إذن، لم يعد ساباتو مقتنعاً بالتوجّه العلموي للمعرفة العلمية scientisme، وهو ذلك التوجّه الذي ظلّ – وما زال – يهيمن على مؤسسات البحث العلمي، ويقود خطوات البحث والاختراع؛ بل إن الرجل ما اكتفى بذلك وحسب، وإنما ارتفع لديه منسوب الشك والارتياب، بشأن ما يُسمّى لدى ذلك

التوجّـه العلموي «بالتقـدّم التكنولوجي»، الذي هـو وليد المعرفة العلميـة البحتـة، ورديفها. فقد اقتنـع إرنستو ساباتو بـأن ما يسمّى «بالتقـدّم التكنولوجـي»، ليـس سـوى كذبـة ملفقة، تعمـل بعض الجهـات المغرضة على ترويجها، وعـداً بمستقبل خلاّبي وسرابي ليـس إلاّ، بينما يؤكّـد واقع الحال بأن ذلك «التقـدّم»، لا ولن يزيد سوى في تسريع وتيرة الكارثة، التي تحدق بالإنسانية.

لقـد صارت قناعـة إرنستـو ساباتو راسخة بكـون ثمار تلك العلـوم، التـي لا تخدم في البـدء والمنتهى، سـوى مصالح طائفة متحكمـة فـي مصير هـذا العالـم (أهم مـا يميزها كونهـا معتدّة بمركزيتهـا الشوفينيـة الضيقـة، ومدفوعـة بنوازعهـا الأنانيـة، وميولاتهـا البراغماتيـة الجشعة)، لا ولن تساهـم البتة، في تحرير الإنسـان من مجموع آلامـه، ولا ولن تتصـدى لمعاناته الفيزيقية والميتافيزيقيـة، وإنما ستغدو – في سيـاق تطورها المتهور، وفي مـا قد تسهم بـه من «تقنية متقدّمـة» – أداةً رهيبـة، ستستفيد من دقّتهـا التكنولوجية المتناهيـة، نفس تلك الطائفـة المتحكمة في رقـاب العالم، لتصفية ملايين المواطنين في كافة أرجاء المعمورة، تصفيةً «علميةً» و«نظيفة»!

بعـد العودة من فرنسا إذن، والاستقرار في الأرجنتين، سيتولى

إرنستو ساباتو إدارة تحرير أسبوعية: عالم أرجنتيني Mundo Argentino، وسينخرط في مشاغل بلاده، وقضايا القارة اللاتينو – أمريكية، موزعاً نشاطه الإنتاجي على أوسع نطاق ممكن، بحيث إنه سيتعاون في تلك الفترة المتألقة من سيرة حياته، مع العديد من المجلات والدوريات الأمريكية والأوروبية، وسيكتب العديد من المقالات الأدبية والنقدية والفكرية، التي تترجم انشغالاته الذهنية الجديدة، وانجذابه الفني والأدبي، وولاءه السياسي والإيديولوجي؛ غير أن جلّ هذه الكتابات المقالية مع الأسف، لم تترجم لحدّ الآن، إلى لغتنا العربية.

في غمرة هذا العطاء الفكري والأدبي والنقدي المتنوع، سيصاب الرجل بمرض خطير على مستوى عينيه، سوف يجبره على التخلي المكره عن الكتابة والتأليف، إلا أنه مع ذلك لن يجلس مكتوف اليدين، يناغي في حسرة وحزن ذاتَه الكسيرة، وإنما سيحوّل طاقته الإنتاجية في اتجاه محفل إبداعي آخر، هو فنُّ الرسم والصباغة؛ ومن ثمة، سيظل ساباتو حاضراً بكلّ عنفوانه وإشعاعه في الساحة، وسيقيم عدّة معارض داخل الأرجنتين وخارجها، كان أهمها المعرض الذي أقيم بمركز جورج بومبيدو بفرنسا، سنة 1989.

ولأن إرنستو ساباتو ظلّ مثقفاً عضوياً نظيفاً، لم يتوان في يوم من الأيام قط، عن الدفاع عن الحرية والديمقراطية وكرامة الإنسان، مثلما لم يسبق له أن تورّط من ذي قبل، أبداً، في أي عمل من أعمال العنف السياسي، فإن حكومة ألفونسين Alfonsin الديمقراطية، قد رسّمته سنة 1984، على رأس اللجنة الوطنية للبحث عن الأشخاص المفقودين (وهي اللجنة التي تعرف اختصاراً بالـ: CONADEP، وقد تمثلت مهمتها في الكشف عن هوية ومصير الأشخاص المختفين، ممَن تعرض لعمليات الاختطاف والتصفية الجسدية، وتمّ إخفاء جثته في عرض البحر، أو بحُفر سرية جماعية، من قِبَل الآلة الديكتاتورية العسكرية، التي كانت تتحكّم في رقاب البلاد والعباد، وتحكم الكلّ بقبضة فولاذية كاتمة.

بعد جولات كابوسية رهيبة، من هذا النبش المؤلم في ذاكرة بلاد كسيرة (سوف يحكي الكاتب عن بعض أطواره، في متن هذا الكتاب المترجم)، استهدفتْ تمهيدَ الطريق لتأسيس صرح عدالة انتقالية، وتثبيت دعائمها وفق ما يضمن المصالحة بين الدولة وجميع المواطنين، بعد التحقيق في ماضي الانتهاكات الجسيمة، التي ارتكبت في حق الإنسان، ومحاكمة الجناة، ومن

ثـم ترصيف الطريـق القانونية والأخلاقية نحـو مستقبل آمن، يمرّ عبـر استقراء ديوان الذاكرة الجماعية، بمجموع صفحاته المؤلمة والموجعـة؛ سـوف يعكف إرنستو ساباتو علـى النبش في ذاكرته الخاصـة، مستقرئاً أهـم اللحظات والمحطات التـي اجتازها في مسـار حياتـه (كتـاب: «ما قبـل النهايـة»)، ليردف ذلـك النبش والاسترجاع، بتأليف خمس رسائل مفعمة بحرارة إنسانية غامرة، استهـدف من خلالهـا إثارة انتباه القارئ، لهـول الكارثة الكبرى التـي تحدق بالإنسـان هنا والآن، وهي الرسائـل التي تشكّل متن كتاب: «الممانعة»، الذي نقدمه اليوم مترجماً، للقارئ العربي.

3) لـن أتوقـف فـي معرض هـذا التقديم، عنـد مضمون هذا الكتاب، وإنما اخترت أن أوطئ له ببعض الحواشي، التي توخّيتها كي تُقرّب القـارئ من استراتيجية التأليـف، ومن مجمل الأجواء الفكريـة والفلسفيـة، التـي تغطّـي علـى مساحة الكتـاب جملة وتفصيـلاً، متحاشياً ما أمكنني ذلك، السقوطَ في مطبّ الاختزال والابتسـار، وذلك حتى أترك الفرصة سانحـة أمام أنظار القارئ، ليقـف هو بنفسه على مضامين هـذا الكتاب الثرة، ويتعرّف عليها مباشرة.

يتألف كتاب «الممانعـة» من ستة «فصول» متباينة فيما بينها،

من حيث الطول: هي خمس رسائل وخاتمة. وتحمل كلّ رسالة، مع الخاتمة طبعاً، عنواناً مستقلاً يحيل على مضمونها العام، ويميّزها عن غيرها، في مسار التعاضد العضوي والوحدوي للنص. وقد اختار إرنستو ساباتو أن يسمي «فصول» مؤلفه بلفظ رسائل، وأن يرتبها ترتيباً تسلسلياً متصاعداً، لأنه يتوخّى من وراء ذلك تحقيق هدفين اثنين متلازمين، هما:

– أولاً، تحاشي أسلوب التحليل المقالي الجاف، ما أمكن؛ وهو الأمر الذي فتح المجال أمامه واسعاً، كي يكتب مثلما يتحدث، بعفوية وتلقائية، بعيداً عن كل إكراه أجناسي أو منهجي؛ ومن ثمة، راوح في تأليفه لهذا الكتاب، بين التنظير والتحليل تارة، وأسلوب الاسترجاع والاستباق أخرى، والمرافعة والمنافحة تارات أخرى.

– ثانياً، تجسير سبُل الاتصال الحميم والمباشر بينه وبين القارئ، مع ما يستلزم ذلك من عمليات تهيئة الأجواء الوجدانية، ليحدث (وليتواصل) ذلك التلازم القريب بينهما، على امتداد مسافة نمو النص ككل، من غير ما رتوش، أو تعالم مفرط.

لذلك بالضبط، اختار إرنستو ساباتو جنس الكتابة التراسلية (ليس بالمعنى الذي ظلّ متداولاً عندنا، في الأدب والفكر

العربيين الكلاسيكيين، حيث الرسالة كانت تعني ما يعنيه تقريباً، جنس المقالة Essai اليوم؛ وإنما استعملت الكتابة التراسلية هنا، بالمعنى العام والمتداول في التخاطب المكتوب، بين جمهور القراء)؛ لكون الرسالة توفّر على كاتبها، عنَت الانضباط لإكراهات الكتابة التحليلية المحايدة، التي ينبغي عليها أن تنضبط لصرامة البناء الاستدلالي (ما دام لا يرغب إرنستو ساباتو – عن سبق إصرار وترصّد – في البقاء على خط الحياد!). ومن ثمة، يتسنّى لهذا التفاعل التخاطبي، تيسير سُبل الانخراط الفكري والوجداني، بين كل من الكاتب والقارئ، وتسهيل الاتصال العفوي، الخالي من كلّ تكلّف، بينهما.

إن هذا البُعد الاستراتيجي في التأليف، قد ساهم كثيراً في ردف النص بشحنة حرارية أصيلة، ما تنفكّ تجعل قارئه معنياً – لذاته – بحديث الكاتب الشاجن/الشجِن، ومقصوداً – لصفاته الإنسانية المميزة – بالتأمل في ذلك الحديث/الحَدِث، لأنه كلام نابع من عمق وجداني، مشبع بقناعة إنسانية راسخة.

إنها استراتيجية دامجة إذن، لا تترك القارئ يتواصل مع النص، من خلف ستار ذهني فاصل، ولا من وراء حجاب وجداني فارق، وإنما هي تأخذه من يده برفق، وتسير معه في

رحلة مسكونة بالأسئلة، مثلما يمسك الجدّ بيد حفيده الطرية، بحنان غامر بالدفء (أليس إرنستو ساباتو الذي كتب هذا النص، وقد بلغ من العمر التاسعة والثمانين، جدّاً حقيقياً بالفعل؟!)، حين يسيران جنباً إلى جنب، في الطرقات والفضاءات العمومية، ليقتربا أكثر فأكثر من بعضهما، وليُقرّبا بذلك من عمق المسافة الجيلية الفاصلة بينهما، وليتحدثا حديث القلب إلى القلب، بتلقائية، ومن غير ما كلفة تُذكر.

هكذا تُمسك هذه الرسائل بيد قارئها برفق، لتخرج معه في فسحة ذهنية شيّقة، على أرض اليباب والخراب، التي تحيط بنا يومياً، سواء في بيوتنا، أو في شوارعنا، أو مقرات عملنا، أو في مؤسسات الدولة المتحكّمة في مصائرنا، أو في العلاقات الدولية المتحكّمة في رقاب العالم، ببشره وحيوانه ومحيطه البيئي؛ متوخياً من وراء تلك الفسحة الضاربة في أرض التيه الجديد، أن يعود القارئ إلى نفسه ووسطه الخاص والعام، وقد تشبّع بقناعة متفائلة بإمكانية الإقدام على فعل قادر على إنقاذ نفسه، وإنقاذ غيره، من وزر هذا الاندحار المطبق.

فحين يأخذ شيخ الكُتاب الأرجنتينيين بيد قارئه، ويخرجان معاً في رحلة السؤال عن شرطنا الإنساني الجديد، وقد تسلطن فيه

التلفزيـون علـى حياة الناس، إلـى درجة إصابتهم بالعمـى إزاء المهم والأساسـي؛ وتسيّدت فيـه العلاقـات التجارية المبنية علـى التسليع العولمـي، وعلى التبضيع المفرط لـكل شيء، وضاقت فيه حياة المرء (بقـدر ما رحبـت المـدن، والأسـواق، والملاعـب، والملاهي!)، وغـدت فيه حيـاة الإنسان أقل من تافهَة، إلى حـدّ أنه رضي الآن/هنا (بعـد أن لـم يعـد يسكنـه إلا هاجس البقـاء على قيد الحيـاة، كيفما اتُّفـق!)، بدور تلك الحشرة الكافكاويـة المقرفة، التي نذرتْ نفسها للمزيـد من الإنتاج، وللمزيد من الرضـوخ، وللمزيد من الفرجة على شاشـة العالم الصغيرة، وللمزيد من العزلة والوحدة في عُقر النُخروب الضيـق، وللمزيد مـن اللامبالاة الكاسفة وغيـر المأسوف عليها، بما يحـدث له، ولا ما يحـدث حوله. إذن، حين يمسـك إرنستو ساباتو بيد قارئه، كي يخرج معه في هذه الرحلة الطويلة، فإنه يحدثه حديث جـدّ خبر الحيـاة مثلما يلـزم، وجرّب السيـر على جاداتهـا العسيرة والملتوية، في أحلك لحظات العمر الطويل، متأملاً ومعتبراً.

إن كتـاب: «الممانعة» هو بمثابـة تقرير مختصر عن اندحارنا العـام، صـادر عن شيخ عاش ما يقرب القـرن، وهو يعارك وحش الحيـاة الكاسـر، حتى قوّسـت المحن ظهره، لكنهـا مع ذلك لم تطفـئ وهج التفاؤل في دخيـلاء نفسه، ليخرج إلينـا وقد أوشك

على نهايته الحتمية، بسِفر مثقل بالحكم والوصايا، يكشف عمّا اكتسبه في مسار حياة نضالية وفكرية، من رصيد تجاربي ثمين. إن «الممانعة» بهذا المعنى، سِفر أسفار مشبع بعمق فلسفي تأملي، يفضح بمعرفة هادئة، ما حدث ويحدث لنا وحولنا، ويدفعنا بمحبة وصدق إنسانيين غامرين، لكي نأمل في ما ينبغي استشرافه، كأفق إنساني مختلف.

لقد خرج إلينا إرنستو ساباتو في هذا الكتاب، بعصارة عمر حنّكته التجربة، وعتّقته الخبرة والمعرفة بالتاريخ والكتب (لهذا يراوح هذا الجدّ العتيد في سِفر «الممانعة»، بين الإشارة إلى ماضيه الخاص تارة، والإحالة على مقروئه المتنوع تارة أخرى، دون أن ينسى «الاقتباس» من كتاباته الروائية كذلك، خاصة: «أبطال وقبور»).

غير أنه لا ينبغي أن نفهم في هذا المقام، بأن ساباتو يقترح علينا برنامجاً جاهزاً لمقاومة هذا التردّي المجاني، الذي يحدق بالإنسان المعاصر، ولا أنه يتجرأ كثيراً، فيقدّم لنا وصفة دقيقة للتصدي لكل هذا الاندحار، الذي يشملنا بالموات العام، الذي لا يستحقه «الإنسان» فينا، وإنما يدفعنا الرجل كي نُعمِل الفكر أولاً، في كافة وقائع الانحطاط المحيطة بوجودنا اليومي، بدءاً من البيت،

فالشـارع، ثـم المدينـة والكوكب الأرضـي ككل، كـي نتبنّى بعد ذلـك، برنامجاً لممانعة هذا السقـوط والانحطاط الشاملين، اللذين لا يـزدادان إلا التفافاً حولنـا، بفعل مساهمتنـا السلبية في الوجود، سـواء إزاء ذواتنـا وبيوتنـا، أو إزاء علاقتنـا مع الغيـر، أو علاقتنا مع الميتروبولات الشبحية المتحكّمة في الإنسان والطبيعة[8].

يدعونـا الجدّ ساباتو إذن، كـي نمانع ضد هذا الانبطاح الكلي، وضـد اللامبـالاة الميتافيزيقيـة التـي تشملنا، وضـد جميع مظاهر الخنـوع، والمغالطـة، والاستغـلال المفـرط للإنسـان والطبيعـة. وسـوف لن تكون هذه الممانعة ممانعة حقة، إلا بتدبير إوالية الرغبة والإرادة، تدبيـراً فيـه اقتنـاع بالممكـن الآخـر: وهـي الرغبة التي تترجمهـا عملياً، إرادة تواقة إلى تشييد حياة أفضل. إرادة فاعلة تعيد لنا الأمل في ما هو إنساني فينا، وتصالحنا مع ذواتنا، وأغيارنا، ومع محيطنـا، ومع كوكبنا الأرضـي. إرادة تؤسس لشرط إنساني بديل، وقادر على إنقاذنا، من خلال بعث الإنساني فينا، من رميم اليباب.

4) وحتـى لا أنقض الوعد، الذي ضربته على نفسي، فأنهمك فـي تقديـم مختصـر للنصـ، أكتفـي الآن بالقـول إن كتـاب «الممانعة»، هو مرافعة أخلاقية éthique يستهدف إرنستو ساباتو مـن ورائهـا، الدفاع عـن بديل ممكـن يجنبنا المزيد مـن الرداءة

والانحـدار، اللذيـن يستبدّان بحياتنـا المعاصرة. إنـه بديل يذكّر الإنسان بأخلاق الوفـاء للذات، ولحساسيتها، ولمشروعها الحي والفاعـل إيجابيـاً فـي الحيـاة، ويدعـوه كذلـك للتمسّـك بهذه الأهـداف النبيلـة، التـي دافع عنها فيلـق لا يستهان بـه من أبطال الإنسانية، ممن ضَحّى بالغالي والنفيس من أجلها.

إن الكتـاب إذن، مرافعة أخلاقية تتوخى إيقاظ البُعد الإنساني فينـا، الـذي لن ينبعث حيّاً وديناميكياً بدواخلنـا، إلا إذا كُنّا نرغب حقـاً في حياة أخرى ممكنة، رغبـةً تخفرها الإرادة الفاعلة، وهي تنعكـس إيجابيـاً على المحيـط الخاص والعـام، إلاّ ونحن نمانع يومياً، دونما هوادة، ضد كافة أشكال اللامبالاة والخنوع والزيف والنفاق والسرقة والاستنزاف والاستبداد والاستقواء، التي نتلقاها سلبياً وبغير اكتراث، ونروّج لها بقصد، أو بغير قصد.

إن إرادة الحيـاة الحقة مشروطة بـإرادة الممانعة. ولا ممانعة إلا بانخـراط الإنسـان فينـا انخراطاً فاعلاً وايجابيـاً، حيث ينبغي التواجد والانخراط.

فهل نبدأ على الأقل، بمحيطنا؟

أحمد الويزي

الهوامش:

1) ازداد إرنستو ساباتو شهرة يوم: 24 يونيو/حزيران 1911، ببلدة روخاس Rojas، التي تبعد عن العاصمة الأرجنتينية، بوينس إيريس، بثلاثمائة كيلومتر.

2) من بين هذه الكتب المقالية، أذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: واحد والكون Unoyel universo، الصادر سنة 1945؛ رجال ومعدّات، سنة 1951.... إلخ.

3) تعدّ ثلاثية إرنستو ساباتو الروائية: «النفق» (1948)، و«أبطال وقبور» (1961)، و«ملاك العتمات» (1974)، من بين أشهر الروايات، ليس في أمريكا اللاتينية وحدها، وإنما في العالم قاطبة؛ وهو الأمر الذي يفسّر قيمة تلك الجوائز، التي حظيت بها هذه الروايات هنا وهناك، مثل جائزة سيرفانتيس Cervantès الإسبانية، وجائزة إسماعيل قدري Ismael Kadaré، وجائزة أحسن مؤلَّف أدبي أجنبي، بفرنسا. ولتقريب القارئ العربي من أهمية هذه الثلاثية الروائية، أوردُ في هذا الصدد، مقتطفاً من نص نقدي طويل، كتبه الناقد فيرناندو نافارو Fernando Navaro سنة 1986، ونشر بمجلة أوروبا Europe، وفيه يستعرض بعض عناصر السبق والفرادة والخصوصية، التي ميّزتْ مشروعَ ساباتو الروائي. يقول

نافـارو: «لقـد كان إرنستـو ساباتو أول من عـرف كيف يمزج بين الكتابـة المقالة التحليلية، والكتابة التخييليـة. إن الرواية بالنسبة له، كانت مدعـوة لأن تلعب دوراً «افتدائياً» فـي العالم الغربي، بحكم أنها ظلت قادرة على القيام بنوع من المقاربة التركيبية، بين ما يمتُّ بصلة لما هو عقلي، وما ليس عقلياً.

فقد لاحظ الجمهور، منذ صدور رواية: «النفق» (سنة 1948)، بأن ساباتـو قد عمل علـى الرفع من قيمة القـوى النفسية الخفية، ضمن تركيبـة النفـس البشريـة، وهو ذلك الميـل الذي تأكّـد، وتطوّر في روايتـه: «أبطال وقبور» (سنة 1961)، التي قامـتْ برسم لوحةً فنية هائلـة، استحضـرتْ فيها بكيفيـة مدهشة، عناصـر التاريخ والحياة الأرجنتينييـن، من خلال بنيـة تعددية ملحوظة طالـتْ سُبُل التعبير، وخطيـة الزمـن التعاقبي لتوالـي الأحداث. وفي هـذا المقام، ينبغي التذكيـر بأن أحد فصول هذه الرواية، وهو الموسوم بعنوان: «تقرير حـول العميـان»، يتضمن بعضـ أحسن مـا ابتدعه أدبنـا اللاتينو– أمريكي، على الإطلاق.

تحكـي روايـة «أبطـال وقبـور» قصة حـب مستحيل، منشـدّ إلى محبـوب وبـلاد معينين، ومن ثم فهي قصة بحث عـن امرأة رمزية، تقـع في قلـب الإعصار الـذي تتسبب فيه القـوى الارتكاسية، التي ترجّ التاريخ.

بعد ذلك، تأتي رواية «ملاك العتمات» (سنة 1974)، لتُعمّق النقاش الفلسفي والسياسي المعاصر، الذي سبق طرحه في الرواية السالفة، ولتمـلأ أيضاً ذلك المدارَ غير العقلاني، الذي تركه «تقرير العميان» شاغـراً. ففي هذه الرواية، يغدو الإبـداع باعتباره وريث الاصطدام العنيـف بيـن المنطق واللامنطـق، كلاً جلِيـاً، يتميّز بنفـاد الإبصار

وخسفة العمى، في ذات الآن فرناندو نافارو، مجلة أوروبا، 1986.

4) أصدر إرنستو ساباتو محاورتين، الأولى حاور فيها بورخيس، وهي الموسومة بعنوان: «محادثات ببوينس إيريس: حوارات مع خورخيه لويس بورخيس»؛ والثانية كان فيها هو المحاوَر، بينما المحاوِر هو كارلوس كاتانيا، وهي بعنوان: «أشباحي: حوارات مع كارلوس كاتانيا».

5) أصدر الكاتب مؤخراً، وقبل صدور كتاب: «الممانعة»، تحديداً، مؤلفاً شيقاً يسترجع فيه ذكرياته، بعنوان: «ما قبل النهاية».

6) انظر التقديم الذي كتبه ج. ك. موندراغون J.C.Mondragon، للطبعة الجديدة التي صدرت بها رواية: أبطال وقبور، منشورات السوي Seuil نوفمبر/تشرين الثاني 1996، باريس، فرنسا.

7) يُقصَد بطقس العبور rite de passage، ضمن المنظور الأنتروبولوجي، حفلاً طقوسياً عشائرياً فارقاً، يفصل بين لحظتين أو محطتين متمايزتين، في حياة الفرد. إنه ذلك الطقس الاحتفالي الذي تتجنّد له القبيلة كلها، لدمج الأشخاص – الأطفال المراهقين، مثلاً – في حظيرة الكبار، بعد أن تختبرهم اختباراً عسيراً، ينبغي أن ينجحوا فيه. وقد استعمل ج. ك. موندراغون هذا التعبير الاستعاري، للإشارة إلى ذلك الامتحان النفسي العسير، الذي خضع له ساباتو في تلك الفترة، وانتقل على خلفيته من موقف إلى آخر، وهما الموقفان المتمايزان في مسار حياته: قبل فرنسا، وبعد فرنسا.

8) وهـذا مـا دفعني شخصيـاً، للتصرّف في ترجمـة عنوان الكتاب «بالممانعـة»، مستعيضاً بذلك عن ترجمتـه «بالمقاومة»، مثلما قد يتبـادر إلى ذهن القـارئ لأول وهلة، حين يقرأ العنوان سواء في لغته الأصليـة، الإسبانية، أو حتى في اللغة الفرنسية: Larésistance/La Resistencia؛ ذلـك أن للفظة «المقاومة» فـي تلقينا العربي، على الأقـل، مرجعية دلالية تفيد الصدام العنيـف، والمواجهة المسلحة، وهو ما يتنافى مع مقصدية الكتاب العامة!

***

www.booksall.net

الرسالة الأولى:

الصغير والكبير

يحـدثُ أن تتوالى عليّ، مثل هذا اليـوم، أيـامٌ أستيقظ فيها مـن النوم، وقد سَكنَ بيْن جوانحي أملٌ مجنونٌ؛ مثلمـا يحدث أن تتعاقـبَ عليّ، مثل الآن، لحظـاتٌ خاصةٌ أحسّ فيها، بـأنّ إمكانيةَ جعلِ الحياة أكثرَ إنسانيّةً ممـا هي عليه، أمرٌ قريبٌ منّا، وطوعُ أيدينا.

بهـذه المشاعـر، هرعـت إلـى الكتابة مـع أول ضـوء، يبشّر بولادة

«إنّ أروعَ سلوى أنْ يجدَ المرءُ العالمَ كلّه، مَرْكوزاً في روحِ واحدة، وأنْ ألْفِيَ أنا كافةً بني جِنْسي، مُجسّدين في صديقٍ أطْبَع عليه قُبلاتي».

ف. هولدرلين

النهـار – متحسّسـاً أو أكاد، بينمـا أنـا مغمض العينيـن، تقريباً – مثلمـا يهرعُ إلـى الزقاق، طالباً النجدةَ كلّ مَنْ تهدّد بيتَه حريقٌ، أو مثلما قد تصدرُ عن إحدى السفن، التي توشك على الغرق، إشارةُ استغاثـة مُشْبَعـة بحُمَية شديدة، فـي اتجاه الميناء الأقرب منها، حيـث لا شيءَ يكاد يُسمَع بالمرة، بسبـب تلك الضجّة الصاخبة، التـي تكتنـف المكان، وحيـث لا شيء يكاد يُـرَى كذلك، وسطَ دائرة الإعلاناتِ الضوئية الخلاّبة، التي تَلفّ الأجواء.

ألاَ فلنَمْنَـحْ أنفسَنـا بعضَ الوقـت، لنحلـم بالرّفعَـة التي من الممكـن الصُّبُـو إليها مرة أخرى، إنْ نحـنُ تجرّأنا على النظر إلى الحيـاة، بكيفية تختلف عن المألوف. ذلك أنّ على المرء الإقدامَ، بمعرفة منه، على مواجهة هذه المخاطرة، التي من شأنها أن تُعدّل فينا، وأن تُعيـد إلينا، البُعدَ الإنساني الحقيقي، الذي افتقدناه. وإنّا جميعـاً لناظـرون – سواء اليـوم، أو غـداً – إلى الأشيـاء، بكيفية مختلفـة. غيـر أن ما بإمكانه أن يحمينا مـن مغبة الوقوع في الزّلل والخطـل، هـو الاقتناع بأن قيمَ الوعي وحدَهـا، هي القادرةُ على أن تضمـنَ لنـا النجاةَ من رجة ذلـك الزلزال، الذي يُهـدّد شرطَنا الإنسانيّ برمّته.

وبينمـا أنـا منكبٌ علـى الكتابـة، إذا بي أتوقـف لبرهة، كي

أتلمّس منحوتةً فنّية خشنة، كان هنود الطوباز Tobas قد أهدوها لي، في وقت من الأوقات. وما كان من هذه التحفة القيّمة إلاّ أن ذكّرتني، في خضم ومضة ذهنية خاطفة، بذلك المعرض «الافتراضي»، الذي عرضَه أحدُهم أمام ناظري بالأمس، عبر شاشة الحاسوب، وهو الأمر الذي بدا لي – وينبغي أن أُقِرّ بذلك – وكأنّه عملٌ من أعمال السّحر. والسبب الذي حدا بي إلى اعتبار الأمور كذلك، هو أنّا كلما تواصلنا مع بعضنا بعضاً بطريقة مجرّدَة، إلاّ وابتعد كلٌّ منّا عن جوهر الأمور، وإلاّ استغرقتنا لامبالاةٌ ميتافيزيقية عارمة، بينما كياناتٌ خصوصية غير مُشخْصَنَة، بلا لحم ولا اسم، تحتكر السلطةَ. إنّ الإنسان لفي طريقه إلى خسران إمكانياتِ الحوار مع الآخر، بكيفية تراجيدية وأليمة، وفي طريقه كذلك إلى فقدان فرصِ التّعرُّف على العالم المحيط به؛ إذ بين ظهراني هذا العالم تحديداً، تنشأ اللقاءاتُ، وتتأسّس إمكانياتُ عقد أواصر المحبّة، باعتبارها أسمى سلوكاتِ الحياة. لقد بدا لي بأن الأحاديث، التي كنّا نتجاذب أطرافها، ونحنُ جلوس إلى مائدة الطعام، حتى ولو كانت تتخلّلها الخصوماتُ، وردّاتُ الفعل الغاضبة، قد أخذتْ تحلّ مَحلَّها المشاهدةُ التلفزيونية، التي يسكنها تأثيرُ التّنويم المِغناطيسي. إن التلفزيون ليُكبّلنا بسحره الآسر، ويجعلنا مجرّدَ تابعين له. وينجم تأثيرُ

التلفزيـون، الذي هو في ذات الآن تأثير سحريٌّ ومؤذٍ، حسب ما يبـدو لي شخصياً، عن إشعاعٍ ضوئي مفـرطِ الحيوية، ما يلبث أن يجتـذب أبصارنا اجتذاباً نحوَ الشاشـة الصغيرة، وبذلك يذكّرني بتلك الجاذبية المماثلة، التي تكون الحشراتُ، وحتى الحيوانات، عرضـةً لها. وهي جاذبية ضوئية قويـة، تبلغ حداً يصعب علينا فيه كثيـراً، أن نستغنـي عـن المشاهدة، ومن ثمة نخسـر جراء ذلك، القدرةَ على رؤية جلّ ما يحيط بنا، كرؤية الزقاق المؤثّث بأشجار النخيـل الهائلـة مثـلاً، أو تانـك العينيْـنِ البريئتيْن في وجـه امرأة عجـوز، أو تلك السُّحُب المُخيمة علـى الأفق البعيد، حيث تتهيأ الشمسُ للغروب. إنّ إزْهارَ شجـرات الميموزا، في مُعترَك فصل الشتـاء، لم يعد يستأثـرُ حتى باهتمام هؤلاء الذين مـا عادوا البتة، قادريـن علـى تـرك أنفسهم تتفاعل مـع تلك الفتنة، التـي تُشيعها يوميـاً، شجراتُ الجاكاراندا المغروسة فـي أرجاء بوينس إيريس. ولشـدّ مـا صرتُ أفاجـأ كثيراً، وأنـا ألاحظُ بـأنّ الناس قد غدتْ تستطيـب بشكل متزايـد، رؤيـةَ المناظر الطبيعيـة معروضة على السينما، أكثر مما تستطيبها مثلما هي حقاً، في الواقع.

مـن الأمور المُلحّة علينا – اليـومَ – غايةَ الإلحاح، أنْ نتواجد ونتلاقـى فعلياً، في الأمكنة المخصصـة للتّلاقي والاجتماع، التي

صـار يسحبُها منّا واقعُ كوننا غدوْنا جمهـرةً غفيرة من الحُشود، التـي لا تعـرف غيـرَ مشاهـدة التلفزيـون، وهي تعيش فـي عزلةٍ وانفـراد. والمفارق في هذا الأمر، هو أننا نعتقد في قرارة أنفسنا، بأنّـا كائنـاتٌ متصلـة مع العالـم بأسـره، بينما نحـن – حقيقة – محرومـون بهـذه الكيفيـة بالـذات، مـن إمكانية العيش داخل الجماعـة، بشكل أكثـر إنسانية؛ والأنكى والأمَـرّ من ذلك أيضاً، هو أنّنا نتهيأ طواعية، بتلك الكيفية، للنسيان. لقد سبق لي أن قلت فـي العديـد من الحـوارات، التي أُجْرِيَـتْ معي: «بـأنَ التلفزيونَ أفيـونُ الشعوب»، محوّراً بكيفية ساخرة، عبـارةَ ماركس الذائعة الصيـت. ومـع ذلـك، فأنا أؤمـن إيمانـاً راسخـاً بمضمون تلك العبـارة: إن المـرء ما ينفـكّ وهو أمـام التلفزيـون، أن يدخل في سبات عميق، مشبع بالبلادة والخمول؛ وحتى حين لا يجد ما هو مهـم في الشاشة، فإنه يبقى مع ذلك، خاملاً في مكانه، وغير قادر علـى النهوض البتة، للقيام بشيء أجدى لـه، وأنفع. إن التلفزيون ليجرّدنـا مـن الرغبة، إما في ممارسة الفـن، أو في قراءة كتاب من الكتـب، أو فـي ترتيب شيء يحتاج إلـى أن يُرتّب بالبيت، ونحن نصغـي بالموازاة مع ذلك، إما إلى الموسيقـى، أو نرتشف بُهْشِية الشّـاي maté بمتعـة؛ مثلمـا هو يَحُـولُ بيننا وبين الخـروج إلى مقهـى أو حان، رفقة أحد الأصدقاء، أو تجاذب أطراف الحديث

مع أحد المقربيـن. إن التلفزيون لورطةٌ شاغلة، وهو إجهادٌ مشبعٌ بالعيـاء والكلل، سرعان مـا نتعوّد عليه، لأننا لا نجد عنه «بديلاً»، نستطيـع الانهماك فيه. إن الجلوس أمـام شاشة التلفزيون بانتظام، هو تخديـرٌ للحساسيّة، وإفْتارٌ لهمّة العقـل، وحطّ من قَدْر الرّوح الإنسانية.

إن حواس الإنسان يصيبُها الضمور، فتطالب دوماً بالمزيد من الاحتـداد، أو الصياح، مثلما يقع للصّـمّ تماماً. ومن ثمة، لا نعود نـرى، إلا مـا وُضع تحت أضـواء الشاشة، ولا نعـود قادرين البتة علـى الإصغـاء، دون الاستعانـة بالعدد المرتفع مـن الديسيبيلات décibels[1]، كمـا أننـا لا نعود قادرين بالمرة، علـى شَمّ الروائح العطرة. إن الأزهار ما عادتْ لها عندنا روائح تذكر، أبداً.

مـن بين الأشياء التي تحزّ في نفسـي، وتفعل فعلها السلبي فيّ بشـدة: الضجيـج. فحين يحدث لي أن أخـرج مثلاً، رفقة صديق مـن الأصدقـاء لاحتسـاء فنجان قهـوة، في محل مـن المحلات العموميـة، بعد أن توشك فترة الظهيرة على الانقضاء، نجد نفسيْنا مكرهيْـن على قطع مسافة طويلـة، بمحاذاة العديد من التجمعات السكنيـة الضاجة، قبل الظفر أخيراً بحانة، نستطيع أن نشرب فيها قهوتنـا، بأمـن وسلام. لكن ما يزيد الطينَ بلّة، هو أنّا بعد كل ذلك

الوقـت، الذي نكون قد قضيناه، ونحن نضـرب في الأرض سيراً علـى الأقـدام، لا نكون قد عثرنا على مكان هـادئ بالمرة، وإنما نضطـر في نهايـة المطاف إلـى التسليم بالأمر الواقـع، والإذعان لأجـواء الضجة التي تكتنف المـكان، ملتمسين فقط من صاحب الحـان، أن يتكرّم علينا بإطفاء التلفاز، وهو ما يفعله بطيب خاطر، لأنّـي أنا – بالـذات والصفات – هو من التمس ذلك؛ والله وحده يعلـم كيف يتصرف بقية أبنـاء هذه المدينة، بوينـس إيريس، التي يبلـغ تعداد ساكنتهـا ثلاثة عشر مليون نسمـة، ليتدبروا أمرهم في إيجـاد محـلّ ملائـم يفـي بالغرض، للتحـادث مـع صديق من الأصدقـاء. إن ما أذكره في هذا السيـاق، هو من قبيل الأمور التي تحصـل مع كل فرد من ساكنـة هذه المدينة، ويـزداد الأمر إيلاماً للنفـس، حين يكون الواحد منّا، عاشقـاً للموسيقى. فهل يُعقل أنّا سنختـار الإصغـاء إليها، بينمـا الجميع في المحـلات العمومية، يتحـدث بلغـط، ويكاد يصيح؟! ففي كل مقهـى، يوجد إما جهازُ تلفزيـون، أو جهـازُ إرْعـاد الصـوت tonitruant. لكـن، إذا ما صـدع كل واحـد منّا بشكواه مـن الضجيج، بعـزم وهمة، مثلما دأبـت أنا على فعله، فإن الأمور سوف تسير شيئاً فشيئاً، في اتجاه مسار آخر، ربما يكون مختلفاً. وإني لأتساءل مع نفسي دوماً، إن كان الناس حقاً غير مبالين بهذا الضرر، الذي يتسبّب فيه كلُّ ذلك

الضجيج، أم أنهم يعتقدون – في قرارة أنفسهم – بأنهم متميزون، حينما يرفعون عقيرتهم بالصياح. لقد تعوّدنا أن نسمع في العديد من الشقق، لتلفزيون الجار. فكيف حدث أن صرنا لا نكاد نُكنّ لبعضنا بعضاً، غيرَ النزر القليل من الاحترام والتوقير؟ ثم كيف يكون بمُكنة الكائن البشري، أن يتحمل وزر كل هذه الضجة اللاجبة، التي يعيش وسطها؟ إن التجارب التي جرت على الحيوانات، قد بيّنتْ أنّ الإفراط في الضّجة يشرع أولاً في إتلاف ذاكرة الحيوان، ثم سرعان ما يجعله مجنوناً، ليرديه في النهاية، قتيلاً. ولا شك أني أتقاسم مع هذا الأخير، نفسَ الحساسية المتأثرة بالصخب، لأني دأبتُ قبل الخروج من البيت، على وضع بعض السّدّادات الوقائية على أذني.

لقد تعوّد الإنسان على أن يكون سلبياً، في مواجهة هجماتِ الصوت الصاخب الصادرة عن كلّ الأمكنة، إلى أن آلت هذه السلبية في النهاية، إلى نوع من الاستعباد الذهني، بل إلى استعباد حقيقي.

غير أن هنالك وسيلة، من شأنها أنْ تمدّ البشرية جمعاء، بالمساعدة للدفاع عنْ نفسِها ضدّ هذه الهجمات المحدقة بها، وهي تلك الوسيلة المتمثلة في موقف عدم الإذعان لهذا الهجوم،

وعـدم الاكتفاء بسلوك اللامبـالاة، أمام آفة اختفـاء الغنى الزاخر، الـذي شـكّل ولا يـزال يشكّل، جوهـرَ هذا الكون الـذي ننتمي جميعـاً إليـه، سواء من حيث الألـوان، أو الأصـوات، أو الروائح العطـرة. تـرى أين اختفـتْ تلك الأسـواق القديمـة، التي ظلتْ تعرضُ فواكهَها، وخضارَها، ولحومها، عرضـاً بديعاً أمام أنظارِ الناس، مما يجعلهـا تبدو، وكأنما هي مهرجاناتٌ حقيقية للألوان والروائـح، ومناسبـةٌ لاحتفال الباعة بالطبيعة فـي عمق الحاضرة، هؤلاء الباعة الذين كانوا يتنافسون في ما بينهم، في الإشادة بجودة بضائعهـم، حتـى إنهـم سرعان مـا يفلحون جراء ذلـك، في نقل حُمَياهـم وحماستهـم إلينـا؟! ولشـدّ مـا أتأثـر الآن، لرجع تلك الذكـرى البعيـدة، حين كنتُ أرافقُ أمي إلـى محلّ تربية الدجاج، لشـراء بعض البيض، الذي تكون الدجاجات قد وضعته للتو! غير أن الأشيـاء كلها صـارتْ اليوم معلّبة، بل وطفـق البعض في اقتناء حاجياته، مستعيناً بالحاسوب، هذه النافذة الافتراضية التي سوف تغـدو الكوةَ الوحيدة، التي سيُطلّ الناسُ من خلالها، على الحياة. وبنـاء على ذلك، سـوف تصير الحيـاةُ غير قابلة للّمْس، ودافعة بالجميع إلى اللامبالاة.

ليس هناك من وسيلة أخرى، تُمكّننا من بلوغ مرحلة الخلود،

غيـر الانخـراط الكلي في لجّـة اللحظة الراهنـة، ولا طريق هناك للوصـول إلى ما هو كوني، سوى عبـر ما هو محلي وخاص: هنا والآن. فمـا العمـل، ضمن هـذه الشروط؟ إن علينـا من جهة، أن نعيد تقدير هذا النزر الضئيل من الوقت، الذي يفضُل لدينا، ونثمّن من جهة أخرى، هـذا المكان الضيق جداً، حيث نعيش يومياً؛ إن فضاءاتنا الخاصة – التي لا تربطها بالتأكيد، أية صلة بتلك المناظر الخلاّبـة، التـي يمكننـا التفرج عليها فـي التلفزيـون – تُخصَبُ، وتُقدّس مثلما يلـزم، بإنسانية مَن يأوي إليهـا. فحينما نتلفظ على سبيـل المثـال، بكلمة كرسي، أو نافذة، أو ساعـة منبهة، التي هي فـي الأصـل مجرد كلمات، لا تشيـر إلا لبعض الأشيـاء البسيطة، فإننا سرعـان ما نبعث عبر تلك الألفاظ، بشيء سحري وغير قابل للتعييـن، هو شيء أشبه بالشيفرة، وبالرسالة غير القابلة لأن تُتَرجم باللغـة، صادر عن عمق وجودنـا الخاص. إنّنا حين نقول كرسي، فإنّنـا نستهدف من وراء ذلك شيئـاً آخر، وهو ما يتحقق استيعابه، فنُفْهَـم، أو يفهمنـا على الأقل، هؤلاء الذين تتوجـه إليهم رسالتنا، بكيفيـة سرية. لا يودّ تانـك الحذاءان العسكريـان الضخمان، أن يشيـرا إلى مجرد حذاءيـن عسكريين ضخمين وحسب، ولا تلك الشمعة إلى مجرد شمعة نحيلة فقط، ولا هذا الكرسي إلى محض

كرسي من القش وكفى، وإنما تتطلع كل تلك الأشياء، التي رسمها الفنان، إلى أن تشير إلى فانسون فان غوخ بالذات والصفات، وإلى قلقه النفسي الملازم، وإلى مخاوفه، ووحدته، حتى إن جميع تلك الأشياء، قد غدتْ بالأحرى، رسماً لصورته الشخصية، وتوصيفاً فنياً لعذاباته الأشد غوراً، والأشد إيلاماً، بعد أن عبّر عنها الرجل مستعيناً بأشياء هذا العالم، الذي يبدو بأنه عالم غير مهم في ذاته، وخارجٌ عنّا، ومتواجدٌ هنا قبلنا، ومن المحتمل جداً أن يبقى بعدنا. وكأن هذه الأشياء جُسورٌ راجفة، سريعةُ العَطب، ملقىً بها فوق هُوّة تنفتحُ بيننا وبين الكون، على أساس أنها [أي هذه الأشياء]، أعماقُنا الملغزة، التي ما تفتأ تعكس هوة الكينونة. إنها لتبدو في أعين مَن لا يستطيع فكّ شيفرتها، مجرد أشياء عديمة الأهمية، تهيمن عليها الصبغة الرمادية، بينما هي مترعةٌ بالمقاصد السرية، ومفعمة بالحرارة والعنفوان، في أعين من يستطيع رؤية ذلك. والسبب في كونها قد تظهر كذلك، هو أن الإنسان عادة ما يتصرفُ، في علاقته مع الأشياء، مثلما تتصرف الروح مع الجسد، بحيث تخصبه بالرغبات التي تسكنها، وبالمشاعر والأحاسيس التي ما تلبث أن تجليها تجاعيدُ الجلد، وألقُ النظرة، والانفراج الباسم بين مفرق الشفتين.

تـرى كيف سنقوى علـى ربح رهان الممانعـة، إذا صرنا غير قادريـن على خلق طقـس جمالي، داخل حـدود العوالم الصغيرة المحيطـة بنـا، وإذا لم نعد نكتـرث لأي شيء آخر، عـدا شؤوننا المهنية التي غدا يطبعها طابع غير إنساني، وتنافسي؟

يتـمُّ التعبيرُ عن حضور الإنسـان داخل فضائه، من خلال تلك الكيفيـة، التـي يُمـلأ وفقهـا الخوانُ مثـلاً، أو عن طريـق اللمسة الخاصـة، التي تُرتّـب بها أسطوانات الغناء، أو كتـاب ما، أو لعبة مـن اللعـب. إن الاتصال الذي مـن المفترض أن نعقده، مع كل صنيعـة مـن صنائـع الإنسان، ليهجس فـي دخيـلاء أنفسنا بحياة أخـرى، ويترك أثر العبور خلفه، وهو ما يستحث فينا الاهتمام به، والتعـرف عليه. إننا إذا عشنا الحياة كمجـرد أجسام آلية متحركة automates، فإننـا سـوف نصـاب بعمى يحرمنا مـن رؤية تلك الآثـار، التي يخلفها الناس وراءهم، وهم يعبرون الحياة، وسنكون أشبـه بذلك الحصـى الصغير، التي ظـل عُقلة الإصبـع Le Petit Poucet ينشـره وراءه، كـي يجعله علامة يتعـرف من خلالها على الطريق، لحظة العودة.

ينشـئ الإنسان ما يعبّـر به عن نفسه، كي يمدّ جسور الاتصال مـع الآخريـن، ويخرج من سجـن عزلته، ووحدتـه. إلا أن طبيعة

حياتـه الموسومـة بطابع العبـور، سرعان ما تقف لـه بالمرصاد، فتحـول دون إشباعـه لهذه الرغبـة. إن الرغبة فـي التعبير لوضعيةٌ ملازمـة للحياة، ليست لها – في ذاتهـا – قيمة نفعية تذكر، وهي شأن متعـالٍ كذلك عن كلّ مهمة وظيفية، مهما كانت. وبناء على ذلـك، تغدو بعض الأشيـاء اليومية البسيطة، مثل زوج من الأحذية المستعملـة، أو مصبـاح بسيـط وأليف، حين نقفـل راجعين إلى البيـت، بعد نهار نكون قد قضيناه في العمل المضني والمتواصل؛ علامات تستثير دهشتنا، لأنهـا تشعرنا باستمرار، بأننا بلغْنا الشطّ الـذي ظلّ شوقنا الكبير منشـداً إليه، مثلما يقع للبحّار، الذي حين تغرق سفينتـه، وينهكه العوم، لا يتركّز كل شوقه، إلا على إمكانية بلوغ شط الأمان، بعد معركة طويلة مع الأنواء.

لا يترك لنا العمل اليومي، غير قسط ضئيل من الوقت، لمزاولة هواياتنـا. ففـي كل يوم تقريبـاً، وقبل الإتيان على طعـام الفطور، يكـون علينـا أن نفكّـر سلفاً في تلـك المشكلات، التـي تنتظرنا خـارج البيـت، لأن حياتنـا صـارتْ منـذورة بكاملهـا للعمـل والإنتاجيـة، إلى حدّ غدونا معه، عاجزين عـن التريث قليلاً، أمام فنجـان قهـوة الصبـاح، أو التمهّـل بعض الشـيء أمـام بُهْشيات الشـاي، التـي يُفترَض تناولهـا صحبـة الأصدقاء. ومـا إن نقفل

راجعيـن إلى البيت فـي المساء، حتى نضيّع تلك اللحظات – التي كان ينبغـي علينـا أن نقضيهـا صحبـة العائلـة، أو رفقـة بعض الأصدقـاء، أو في تأمل الطبيعة بصمت، في تلـك الفترة المسائية الساحرة، التي تنزل فيها الظلمةُ، لتُغلّف الكونَ برمته، مذكّرة إيانا بلوحات مييه Millet[2] الفنية – في مشاهدة التلفزيون! ربما صار الناس يجدون لذة قصوى، وجمالاً ما بعده جمال، وهم يعكفون على الانتقال من برنامج تلفزيوني إلى آخر، أو وهم يتمسكون بقناة واحدة، أكثر بكثير مما صاروا يجدون ذلك، في اقتسام صحن من الطعام، أو كأس من النبيذ، أو طبق من الحساء مع أحد الأصدقاء، أثناء أمسية خاصة.

إذا كُنّا ندرك الأشياء والكائنات بالحِسّ، وكانت جلدتنا غير مكسوة بجِلدٍ قاسٍ، فإن على الحضور البشري الأقرب منّا، أنْ يحرك مشاعرنا، وأن يُدخل الطمأنينة على أفئدتنا، وأن يجعلنا نفهم بأن الآخر هو دوماً، مَن يُخلّصنا؛ وعلينا أن نعلم، أنّا ما أدركنا من العمر ما أدركناه، إلاّ لأن آخرين كانوا – على امتداد التاريخ البشري برمته – قد أنقذوا حياتنا. إنّني لأستطيع أنا هذا الشيخ، الذي أثقل الدهر كاهله بوطأة السنين، أن أقول – ليس من غير ألم، البتة – بأن كلّ صداقة نفتقدها في الحياة، إلاّ وتترك

فينـا جرحاً، وضموراً. إننا لنعجز دومـاً، عن عقد صلات صداقة حقيقيـة مع الآخرين، لأنّا لا نقبـل بهؤلاء إلاّ ضمن تلك الحدود، التـي يؤكـدون فيهـا طريقتَنـا الخاصـة فـي الوجـود والشعور، ويكونـون لنـا فيهـا مساعديـن على إنجـاز بعض المشروعات الخاصـة. وإلاّ، فإننـا نظـل نرزح تحـت ثقل أعمالنـا، ومهامنا، وشؤوننـا، وطموحاتنا، فرادى ووحيدين، وهو الأمر الذي يحول بيننا وبين كل مناسبة من شأنها – لو استثمرناها حقاً – أن توفر لنا عقد صلات جديـدة. إن اتساع المدينة ليتجـاوز طاقتنا، وهكذا تستحيل على الغير، إمكانية البلوغ إلينا. بل ويحدث أن لا نلتفت حتـى بين جنباتنا، لنلحظ هذا الغيـر. لقد صار الكائن المجهول، الـذي صرنـا نتواصل معه عبـر الحاسوب، طوعَ أيدينـا أكثر مما صـار يحظـى غيره بذلـك، فعلاً. ولمـرات عدة، يحـدث لنا أن نتعامل مـع أصحاب الدكاكين والمحـلات التجارية، وكأنما هم يـؤدون – مبدئياً – بعضَ الوظائف الخاصة وحسب، بنفس القدر الذي تؤدي به الحواسيـب والأجهزة المعلوماتية وظائفها. إننا لا نسعـى إلـى إضفاء بعض العاطفـة الإنسانية على هـذه العلاقات التبادليـة، التي نتواصل أثناءها مع هؤلاء، وكأن درعاً وقائياً يحمينا مـن كلّ اتصـال إنساني، قد «يُغـرّر بنا»، و«يُحـوّل» انتباهنا عن

الأساسي. ولأن الإنسان لا يعتبر الآخر إلا معيقاً له، ومضيّعاً لوقته، فإنه يجد نفسه اليوم وحيداً، بشكل فظيع؛ وربما أمكن القول بأن النزوع الانطوائي، صار يضرب بجذوره العميقة، وسط هذه الساكنة الموسومة بالكثافة الهائلة، التي تتألف منها مدننا.

لقد شاهدتُ بعضَ الأفلام، التي عَرضتْ لشعور الناس بالاستلاب والوحدة، حتى إنّهم صاروا يسْعونَ، من فرط تأثير تلك المشاعر الأليمة عليهم، إلى تبادل مشاعر الودّ والمحبّة عن طريق الحواسيب، التي تتوسّط في ما بينهم. ولنْ أضيف إلى ذلك أي تعليق، بشأن حال بعض الناس مع تلك المخلوقات الدُّمَويّة mascottes، صَنيعة اليابانيّين، التي يُتفاءَل بها، والتي لمْ يعُد يحْضُرني اسمُها الخاص، بحيث إنهم صاروا يُلاطفُونها، ويُعاملونها بدلال كبير، لأنها في الاعتقاد العام «ذات حساسية»، وينبغي على المتحدث إليها أن يُكلّمها بلطف، وكأنما هي مخلوقاتٌ من لحم ودم. فما أذله من صنيع! ثم إنه لمن المؤلم كثيراً، أن يرى المرء كيف غدتِ تُعبّر الآلاف المؤلفة من البشر اليوم، عن عواطفها بهذه الكيفية! ألا ثباً له من لعبٍ كئيبٍ ومخيف في الآن، هذا الذي يدفع الناس إلى العناية بمخلوقات

مــن دُمــىً، بينما يوجد في العالم عددٌ غفيرٌ مــن الأطفال المتخلّى عنهــم، ممَن يعيشون فــي الشوارع؛ مثلما يوجد هنــاك كَمٌّ هائلٌ أيضاً، من الحيوانات النبيلة التي هي في طريق الانقراض.

لكــنْ، ما زال أمامنا الوقــت الكافي، لوضع حدّ لهذا التّخلي، ولتلــك المجزرة. وعلى هذه القناعــة أن تدفَعنا إلى التّحرك، وإلى العمل لتدارك ما فات.

إنّ حياتنــا لهِبَةٌ مــن الطبيعة، وهي كذلك حتــى بالنسبة لحياة هؤلاء، الذين يحصّنون أنفسهم بحواجز صادّة، إلى حدّ أنها تبدو أكثــر قتامة، من حال الزنزانة الانفراديــة المُطبِقة. إن خفقةَ الحياة لا تحتــاج إلا لفجــوة ضيقة، كي تنْدسّ عبرهــا، وتساهم – بفعل ذلــك – في بقائنا؛ وإذا كانــت تياراتُ المَدّ الكبــرى تستطيع أن تنجــحَ فــي اختراق الجــدران الأشــدّ صلابــة وسُمــكاً، فإنه من الممكــن جداً، أنْ تعــرف قلوب البشــر، وبنفس القَــدْر، فيوضاً تستطيــع أن تتسلّــل إليها عبر تلــك الفجوة الضيقــة نفسها، على خلفيــة ما نبنيه من علاقات. من الممكــن أن يكون ذلك الانفتاح علامــةً على مرض، أو تجلياً من تجليــات معجزة خارقة، تحتفظُ لنا بها الحياة، فتجعلنا نتعرف بفضلها، على كائن يستطيع الحبّ، الــذي يعاملنا به، أن يفتح له منفذاً ضيقاً، يصل من خلاله إلى نياط

قلبنـا، علـى الرغم مـن جميع التحصينـات والمتاريـس، التي قد نتخنـدق خلفهـا، ونتحصّن بها، مثلما يفعل المـاء تماماً، حين لا يكلّ أبـداً عن الحفر قطرة فقطرة، على الجدران الحصينة العالية. حينئـذ، يغدو الشخص الذي كان إلى وقت قريب، أشدّ إيغالاً في عزلتـه، وأشـدّ انطواء على نفسـه، كائناً أقدرَ علـى مبادلة الجميع مشاعـر الحـبّ؛ والسبـب في هـذا التّحـول كله، هـو أنّ ذلك الشخصَ قـد ظلّ، لوقت غيـر يسير، محروماً مـن نعمة المحبّة. وإنّ هذا لهو العامل، الذي يجعل كل مَن قاسى مرارةَ العزلة، يُكنّ لحبيبـه في الأغلب الأعم، القدرَ الكبير مـن العناية والاهتمام. إنّ حبّـاً بهذا الشّكل، لا يجري اعتباره – مـن قِبَل العاشق – على أنه استحقـاقٌ، سعى سعيـاً حثيثاً لتحصيله، وإنمـا كحبّ ينتمي على الـدوام، لدائرة العناية الخارقـة، التي توليها لنا تلك المعجزة ذات الشـأن العظيـم. وإن هذه الملاحظة، التي غالبـاً ما نكون قادرين علـى تكوينهـا، هي ما يدفعنـا إلى الاعتقـاد – وهـو الأمر الذي يتأفّـفُ منه علمـاء النفس – بأن مجتمعنا، الـذي مهما كان شديد المرض، ومهمـا طغتْ عليه الأحوال غيـر الإنسانية، هو مجتمع قـادرٌ على المساهمة في ميلاد ثقافة دينيـة، مثلما أعلن عن ذلك، نيكولا بيرديايف N. Berdiaev[3]، في بداية القرن العشرين.

إنّ الطـبّ لواحدٌ من الميادين، التي صرنا نشاهد كيف يُقاومُ من داخلها اليوم، ذلك التيار المعارض للاعتقاد التراجيدي الرّاسخ، في كلّ ما ينتمي لدائرة المجرّد. ففي سنة 1900، حين أكبّ أحدُ المعالجين الشعبيين، على مداواة المرضى بالبَرَكة، ظلّ الأطباء يسخرون منه، ويستخفّون به، لأن الاعتقاد السائد بشأن المرض وقتها، بقي منصباً على كل ما يدخل ضمن خانة الأسباب العضوية الملموسة، على اعتبار أن العلّة لا يمكنها أن تكمن إلاّ في هكذا عضلات، وهكذا عظام. غير أننا اليوم، صرنا نتحدث عن «طب بسيكوسوماتي»، ربما كان سيؤخذ في الماضي القريب، على أنه ضرب من ضروب السحر والشعوذة. وحتى مع ذلك الفارق المميز بين حالة الأمس واليوم، لا تزال فيتيشية الآلة والعقل والمادة، ملازمة للهيئة الطبية، بل وكثيراً ما يقع التفاخر بين أعضاء هذه الهيئة، بالانتصارات العلمية الكبرى، في الوقت الذي ما توارى فيه الجذري وغيره من الأضرار، إلا لتترك مكانها لأضرار فتاكة أخرى، صار يخلفها السرطان من ورائه.

ينهض العيب الرئيس، الذي عانى منه الطب، على أسّ فلسفي خاطئ امتدّ لثلاثة قرون، ساد خلالها فصلٌ ساذج بين الروح والجسد، وعمّ ضمنها تمثّلٌ حسّيٌّ بريءٌ للجسد، قاد الباحثين

إلـى أن يعتبـروا بأن أصـل جميـع الأمراض والعلـل، مركوزٌ في الجسـم تحديداً. ليـس الإنسان مجرد شيء مـادي عديم الروح، ولا هـو مجرد حيوان، وحسـب. إنه لحيـوانٌ مخصوصٌ بملكة العقـل كذلك، وليـس مخصوصاً بالروح وحدهـا، وحسب. إنه لذلـك الحيوان الأول، الـذي استطاع أنْ يُطـوّر وسطه الطبيعي، بفضـل الثقافة. وباعتبـار الإنسان كذلك، فإنه عـادة ما يعيش في وضعيـة مـن التـوازن – غير القـارة – بين حاجيـات الجسد من جهـة، وتأثيـر المحيط المـادي والثقافي عليه، مـن جهة أخرى. لذلـك، من الوارد جـداً أنْ تكون بعض العلـل، مما صار يشتكي منـه الإنسـان، تجلياً من تجليات هذه القطيعـة، التي حصلتْ بين عناصـر التـوازن الأصلـي، أي تلـك القطيعـة الناجمـة، إما عن اندفاعـات الإنسان النفسية، أو عن اندفاعاتـه الذهنية، أو الدينية، أو الاجتماعيـة. وليـس هنـاك مجـال للدهشـة، حين نعتبـر بأن الأمراض المعاصرة، كحـال السرطان مثلاً، هي مـن قبيل العلل الناجمـة عن هذه الوضعيـة اللاتوازنية بالذات، التـي أسست لها التقنيـة، والنمـاذج الاجتماعيـة العصرية، ضمن علاقـة الإنسان بوسطه. أوَلَيـس السرطان في حدّ ذاته، نوعاً من التكاثر الموسوم بالجنون في عمل الخلايا، الذي يتجاوز الحدّ المعقول؟!

إن التعديـلات التـي خضع لهـا الوسـط البيئـي الطبيعي، قد تسبّبـتْ في انقراضـ أجناس بكاملها؛ وإذا لـم تتمكّن الزواحف العملاقـة، من البقاء على قيد الحيـاة، بسبب تلك التحولات التي طالـت هذا الكوكـب، في نهاية الحقبـة الوسيطية mésozoïque مـن تاريخ الأرض، فإن مصير بني البشـر قد لا يقوى، هو كذلك بالمثـل، على تحمّل هذه التحولات الكارثيـة، التي صار يعجّ بها عالمنا الراهن. والسبب هو أن هذه التحولات المعاصرة، هي من قبيل التغييرات الأعمـق، والأشد هولاً وبلبلةً من تلك التحولات، التـي تسبّبت في انقراض الزواحف الكبـرى، إلى حدّ يجعل آثار هـذه التحـولات الأخيرة، غيـر ذات معنى مقارنة مـع ما يجري الآن، فـي عصرنـا. ذلـك أن الإنسان مـا عاد أمامه مـا يكفي من الوقـت، كي يتأقلم مـع التغيرات القوية، والمفاجئـة على الوسط العـام، التي أحدثها مجتمعه، وساهمت فيهـا تقنيته؛ لذلك، ليس مـن قبيـل الشطـط، أن نعتبر بـأن الأمراض العصرية، هـي بمثابة الوسائل، التي صار يستعين بها هذا الكون المنظم cosmos، لرجّ غطرسة الجنس البشري، بعنف وقوة.

يوفّـر عصرنا لكل مَن يعيش حالةَ انسدادِ الأفق، فيقرّر الإقدام علـى خطـوة الانتحـار، أرقامـاً هاتفيـة [للاتصـال مـع بعضـ

المساعديـن]. أجل، لا يزال في جعبتنـا دون أدنى شك، بعضُ ما ينبغـي قولـه لذلـك الكائـن الإنساني، الـذي تتوقـف الحياة عن الظهـور لـه بمظهر الخيـر الأسمى. بـل غالباً ما أقـدّم أنا نفسي، بعضَ السند النفسي لأناس، غالبـاً ما يشرفون على الهاوية. إنّ ما أخـذ يكتسـي دلالةً كبـرى في وقتنـا الحاضر، هو كوننـا غدوْنا نبحـث عـن كيـف تأتينا كلمـةٌ طيبة، مـن الطرف الآخـر للخط الهاتفـي وحسب، أو عبـر جهاز الحاسوب، بينمـا انعدمتْ هذه الكلمـة في بيوتاتنـا، ومقرات عملنا، وفي الشـارع العام كذلك، وكأننـا كنّا ولا نـزال، مجرد نزلاء في عيـادة طبّية محاطة بحاجز مُشبّـك، يفصل بعضنـا عن البعض الآخر. ففي مثـل هذه الحالة، التـي نعيش فيها وضعيـة الحرمان الكلي، مـن احتمال وقوع أي اتصـال وجداني بيننا، كلما اجتمعنا حول مائدة واحدة، قد يكون مـن الجائز جداً، أنْ لا يفضُل في مُكْنتنا أيّ شيء آخر يمكن فعله، عدا الركون «لاستعمال وسائل الاتصال».

ولقد صار مـن المفضل كثيراً كذلك، في أيامنا هذه، أنْ يقدمَ المـرءُ بطواعية منه، على الموت فوق سريره الخاص، وهو محاطٌ بجميع مَنْ يعطـف عليه، وبكافة الأصـوات، والوجوه، والأشياء المألوفـة لديـه، عوضَ المـوت في سيـارة إسعافٍ تقطـعُ الأزقةَ

والشوارع بسرعة جنونية، وكأنما هي واحدة من سيارات السباق السريعة، لتنقله وهو يُنازع اللحظات الأخيرة من الموت، إلى قاعة معقّمَة تخلو من أي دفء إنساني ممكن، بدل تركه يموت بسلام في بيته، وبين أهله وذويه.

وفي هذا السياق، تحضرني بإكبار وإعجاب شديدين، أسماءُ بعض الأطباء القدامى، الذين كان مجرد قدومهم إلى البيت، كفيلٌ بجعل المريض يتماثل للشفاء. فيا له من لمز ساخر، لا يفتأ يتولّد عن هذه الحقيقة الساطعة!

قفلتُ عائدا إلى البيت، في هذه الليلة الصيفية التي أمسى فيها القمر يضيء الكونَ كله للحظات معدودة، ثم ما يلبث أن يختفي، وأنا محاطٌ من كافة الجهات، بنباتات وأشجار جميلة، منها نبات المغنولية magnolias، وأشجار النخيل، والياسمين، وشجرات الأروكاريا araucarias السامقة؛ وبينما أنا على هذه الحال، إذا بي أتوقف لهنيهة، ظللتُ أراقب أثناءها ذلك النسيج الرفيع، الذي صنعته النباتات المتعالقة فيما بينها، وهي تتسلّق واجهة هذا البيت، الذي لم يعُدْ سوى خراب محبّب لديّ، بنوافذ ذات مصاريع متآكلة ومتفككة، والذي أنا مدرك في قرارة نفسي مع ذلك، بأني لن أستبدله بأي بيت آخر في الدنيا، مهما كان نوعه،

بسبب هذه الشيخوخة التي نشترك فيما بيننا فيها، بالضبط.

مـن الأمور ذات القيمـة، أنْ يُعطـيَ المرءُ الأهميـةً القصوى لشـيء مـا في الوجـود، من خـلال الاعتناء بـه في قـرارة نفسه، والحـدب عليـه، دون أن يلاحظ الآخـرون في الأغلـب الأعم، ذلـك: إنـه للوفاء عينه، أو ربما للخيانة ذاتها، لما قد يرى المرء أنّ قَدَره منذورٌ له.

إنّ مصيرنـا، مثل بقية الأمور الإنسانية الأخرى، لا يفصح عن نفسـه ضمن دائرة المجـرّد، وإنّما يتطلّع كي يتجسّد على الدوام، مـن خلال تفاصيل واقعة من الوقائع، أو عبر تفاصيل مكان معين، أو مـن خلال وجه محبوب، أو في خضم حادثة ولادة متواضعة، علـى مشـارف حـدود إمبراطورية مـن الإمبراطوريـات شاسعة الأطراف.

لا الحـبّ، ولا اللقاءات الحاسمة في الحياة، ولا الاختلافات العميقـة، هي ثمرة الصدفـة، وإنما كل ذلك مـن الأشياء المقدّرة لنـا، بكيفية غامضة وملغزة. فلكم من مـرة أُصِبتُ فيها بالذهول، وتلبّستني الدهشة، وأنا ألاحظ بأننا بكيفية من الكيفيات، لا نلتقي وسـط مليـارات الخلائق الموجوديـن في العالـم، إلا بمن يملك مفتاح مصيرنا! ولربمـا أمكننا القول، في مثل هذه الحالات، بأنّا

– نحن المتآلفين، الذين التقوا بعضهم بعضاً، وسط كل هذا العدد الغفير من ساكنة العالم – ننتمي لنفس الجمعية والزاوية، أو لنفس الفصول التي يتألف منها كتاب بعينه! إذ في الوقت الذي نتعرّف فيه على المتآلفين معنا، فإننا لا نكون على علم أبداً، بما إذا كنّا من قبل نبحث عن هؤلاء، أم أنّنا ما جرينا وراءهم، إلا لأنهم تردّدوا على المناحي، التي يتشكل منها مدار المصير الخاص بنا.

يكشف مصيرنا عن نفسه، ويتجلّى ظاهراً للعيان، عبر بعض العلامات والمؤشرات الصغيرة والتافهة، التي ما نفتأ نُقرّ فيما بعد، بكونها حاسمة ومحدّدة لحياتنا. وهكذا يجري الأمر دوماً، بحيث غالباً ما يحدونا الاعتقاد، في لحظة من اللحظات، بأنّنا ضللنا الطريق، وزغْنا عن الجادة الصائبة، في حين أننا على العكس من ذلك، نتجه صوب هدف دقيق بالفعل، هدف يكون محدّداً بكيفية واضحة بفعل إرادتنا حيناً، بينما يظل غير محدد في مناسبات أخرى، وربما هي المناسبات الأكثر حسماً في مسار وجودنا، بحيث نظل سائرين صوب هدفنا، بإرادة نجهل عنها كل شيء: هي إرادة من طبيعة قوية، وغير قابلة لأن تُمانَع، ما تلبث أن تقودنا إلى حيث يكون علينا أن نكتشف تلك

الكائنـات والأشيـاء، التي قُدّر لها بكيفية من الكيفيات – وما زال الأمـر كذلـك، ولسوف يبقى مقدّراً لها – أنْ تلعـب دوراً أساسياً وجوهريـاً فـي حياتنـا، إمّـا بتيسيـر – أو عرقلـة – بلوغنـا نحو الملذّات والمُتـع الظاهرة، وإما باستثارة قلقنـا، أو بالتخفيف من حدته حدّ إحباطه، وإما بأن تكشف لنا على المدى البعيد – وهذا هو مـا يُدهش – بأنها بمثابة تلك الكائنات، التي ظلت تملك من قـوة البصيـرة، ما هو أبعـد شأواً، وأشـد نفاذاً مـن إرادتنا الواعية بالذات.

تبـدو حياتنا في بعض الأوقات، وكأنما هـي محض مشاهد معزولـة، بعضهـا قريب نسبياً مـن البعض الآخر، وطـارئ عليه، وشبيـه بـأوراق الأشجـار اليابسـة، التي قـد تحملها ريـح الزمن المتدافعـة – بسبـب خفّتها – لتذروها بعيـداً. إن ذاكرتي لتتألّف مـن جُمـاع شـذراتٍ وجـودٍ ثابتـة وخالـدة: لا يمـرّ الزمن بين فجواتهـا، ومن الممكن لبعض الأشياء والوقائع بعينها، مما حصل مثـلاً على مدار سنين عديدة، مـن الفَرْق الفاصل بينها، أن يُضاف إلـى البعض الآخر، مما جرى ضمّه، أو إقحامـه، من قِبَل عناصر ذكـرى جاذبة، أو منفّرة، مـن النوع الغريب. وفي بعض الأحيان، يتـمّ كذلك تمثّل هـذه الأشياء والوقائع في الوعـي، تمثلاً يجعلها

تبـدو متّحـدة، تجمع بينها بعضـ الروابط العبثيـة، إلاّ أنها روابط غيـر قابلة مع ذلك للتفـكّك، كرابط أغنية مـن الأغنيات مثلاً، أو مزحـة، أو موضوع يثير كراهية مشتركـة. إن الخيط الناظم الذي يوحـد بين تلك الأمور جميعها، والـذي يجعلها تبدو مثل سلسلة مـن الشذرات المطـردة، هو – بالنسبة لـي، الآن – ذلك البحث المميـز بالضراوة، والذي صرت أعتمده فـي السعي الحثيث إلى أحـد المطلقـات، كمـا أنـه أيضاً ذلك النـوع من التّحيّـر، الذي أستشعـره إزاء بعض الكلمات بعينها، مـن قبيل كلمة: ابن، حبّ، الله، إثم، طهارة، بحر، وموت.

إلاّ أنـي مـع ذلك، لا أؤمن بالقَدَر كحتمية قاهرة، مثل ما نلفيه فـي التراجيدية الإغريقيـة، أو في ذلك التانغو الشهير، حيث يقول المغنـي: لا يستطيـع أحد مهما كان، أن يفعلَ أي شيء يذكر، ضد القضـاء المقـدّر. لأنه ما الداعي إلى الكتابـة، إذا ما جرت الأمور علـى هذا الشـكل؟ أظـنّ بأنّنا وُجدْنا أحـراراً، كيْ نـؤدّي بعضَ المهـام في الحياة، إذْ من غير حرية، لا شيء يستحقّ عَنَت العيش. بـل إنّي لأعتقد، زيادة على ذلك، بأن نصيب الحرية المتاح لنا في الحيـاة، هو أكبرُ بكثير ممّا نحاول التصرف فيه، وعيشه. ويكفي فـي هـذا الصدد، الاطلاع على مـا دوّنتْه صحائـفُ التاريخ، هذا

المعلّـم العظيـم للبشرية، كي يكـونَ المرءُ على بيّنـةٍ من أمر تلك المسـارات العديـدة، والطـرق الكثيـرة السالكة، التـي استطاع الإنسـان أنْ يخْتطّهـا، ويفتحها لنفسه، بقوة ساعديـه؛ إن تصفّح التاريـخ أيضاً، لكفيل بـأن يجعلنا على بيّنة من أمر تلك التعديلات الهائلـة، التي أجراها الإنسان – بمشقـةٍ، ومحبّةٍ، وحماسٍ أعمى – على مسار الأحداث.

غير أنّنا إنْ لم نترك أنفسنا تتأثر بما يحيط بها، سوف لن نتآزر أبـداً، لا مـع الإنسان، ولا مع أي شيء آخر. إنّنا لنْ نُكوّنَ في هذه الحالة، غير ما يُمكـن تسميته – لتوصيف حال الإنسان المعاصر – سـوى مجتمـع «الوحـدة النّخْروبيـة unité alvéolaire»[4]، وتلك لعمري أشد العبارات إثـارة للقشعريرة! ومجتمع «الوحدة النخروبيـة» هو حال ذلـك الكائن البشري الفـرد، الذي يضرب بمزيـد من النخاريب الأخرى حول نفسـه، يُحكم بها الغلقَ على ذاتـه، سواء فـي شقته الوظيفيـة، أو على مستـوى حصص العمل المحـددة، التي تـوكل إليـه، أو ضمن روزنامته عامـة. وفي هذا السيـاق، لا ينبغـي أن يغربَ عن بالنا، أن نذكّر بأن أعمال الحقل، وجهد الصيد، وجني الثمـار، والصناعة اليدوية، وصهر الحديد، وبقيـة المعادن الأخـرى، وأعمال الحياكـة، والخياطة، والنسْج،

ومعظم مشاريع الأعمال القروية، ظلتْ تجمع إلى حين بين الناس، وتُوحّد فيما بينهم لبذل جهدٍ واحد، يبقى مشتركاً بينهم. إن الحدس بحدوث القطيعة، ضمن هذا التوازن المتناغم بين الناس والأشياء، هو ما دفع عُمّال القرن الثامن عشر، إلى التّمرد على الآلات، ورغّبَهم في الإقدام على الإلقاء بها في النار. أمّا اليوم، فيميل الناس إلى التّجمع على شكل كُتل متكتلة، بُغية التأقلم مع النظام الوظيفي، المطلق والمتصاعد، الذي صار يفرضه الاقتصاد الراهن ساعة بعد أخرى، بكيفية غدتْ صعوبتها على الناس، تزداد أكثر فأكثر. غير أن حياة هؤلاء الموزّعة بين إكراه العيش في المدن الكبرى، التي صارتْ تبتلعهم ابتلاعاً، وكأنما هي زوبعة رملية في صحراء، وبين عادة التفرّج اليومية على التلفزيون، التي صارت تدفع بالجميع إلى القبول بكل ما من شأنه أن يحدث، دون الشعور بالمسؤولية؛ إن تلك الحياة لتهدّد الحرية بخطر محدق، وهو خطرٌ أشبهُ ما يكون، بما ظلت تحذّر منه عبارةُ يونغر Jünger[5] القائلة: «إذا ما تمكّنت الذئاب من نشر عدواها بين الجماهير، فإن يوماً مشؤوماً – لا شك – سيحلّ بينها، سوف لن يصير القطيع فيه، إلا مجرد حشد محكوم بفوضى عارمة».

إن هـذا الخطـر المحدق بنا اليوم، هو بشـكل مفارق ضربٌ مـن الأمل، القادر على إنقاذنا، إنْ قويتْ ذهنية الإنسان، على بذل جهـد يسيـر، فـي اتجاه التّغيّـر. وإذا تحقـق ذلك، فإنـه سيكون بمقدورنـا أن نسترجـع حيـازة هذا البيـت، الذي عُهِـد إلينا منذ القديـم أن نرعـاه، مثلما تقـول الأساطيـر المؤسّسـة. إنّ التاريخ ليتجـدّد باستمـرار. ومـن ثم، وعلـى الرغم من عمليـات انجلاء الوهم، وكثرة الحرمـان المتراكم، التي صار الإنسان يعرفها، فإن علـى الشك أن لا يتسرّب لأنفسنا، بخصوص قيمة تلك الجهود، التـي صارت تُبذل كل يـوم. إذ إنها وعلى الرغم من كونها بسيطة ومتواضعـة، فإن جهـوداً قليلة بمثل هذا الشـكل، هي ما كان قد رسـم للإنسانية مجرى جديداً ضمـن مسار التاريخ، وهي ما كان قـد فتح لسيول الحيـاة بعض المسارب الجديـدة، وسنح لها بأن تتدفق.

إنّ تمسّـك الإنسـان بالبساطـة، واهتمامه بالوسـط المباشر، حيث يعيش، لتزداد حدّتهما مع تقدّمه في السّن؛ وبقدر ما ننسلخ عـن المشاريع، التي ظلتْ تستبدّ بنـا، وتشغلنا على امتداد العمر، بقـدر ما ندنو من تلك الأرض، التـي ارتبطت بها سنواتنا الأولى؛ ولسـتُ أعنـي «بالأرض» هنا جُماع الأرضـ، وإنما تلك القطعة

الصغيـرة، والبقعة الأرضية التافهـة، التي جرتْ فوق ملعبها وقائعُ طفولتنـا، بلعبهـا وسِحْرها؛ هذا السّحر المتمنـع، الذي يَنْشد إلى زمـن الطفولة، وغير القابل للاستعادة. حينئذ، يقع تذكّرنا لشجرة محـدّدة، ولوجه صديق معين، ولكلـب ما، ولطريق مُغبَر، ولزمن قيلولـة صيفيـة مترعة بأصـوات الزيز، وبخرير الميـاه في مجرى قريـب. حينئذ، نتذكّر أشيـاء من هذا القبيل، هـي ليست بالأشياء العظيمـة والكبيـرة بالطبـع، وإنما هي مجـرد أشياء جـد صغيرة ومتواضعـة، من قبيـل تلك التي قد تحظى لـدى الكائن الإنساني مـع ذلك، بأهمية لا تُتصـوّر، خاصة حين لا يجد هـذا الإنسان، وهـو يشرف على الموت، مـا يحتمي به من هـول ذلك المصير المنتظـر، سـوى ذكرى الطفولـة – التي حتى وإنْ بقيـتْ شديدةَ النقصـ، بشكل كبير – فإنهـا تنْشَدّ بشفافيـة وتجريد كبيرين مع ذلـك، إلـى تلك الشجـرة، وإلى ذلـك المجرى المائـي، اللذين يلتصقـان بلحظـة الطفولة، التي انفصل عنهـا المرء بفعل فجوات الزمن، والمسافات الشاسعة.

علـى هذا النحو، نرى بعض المسنّيـن الذين ما عادوا ينبسون بشـيء تقريباً، وإنما ألفـوا أن يقضوا بياضَ نهاراتهم، شاخصين بأعينهـم إلـى البعيـد، بينما بصرهم يرتـدّ في الواقـع، إلى أعماق

أنفسهـم، كي يغوص تحديداً، بيـن ركام تلك الطبقة العميقة، من تربـة الذاكـرة المتراكبة. ولأن الذاكرة هي الشـيء الوحيد، الذي يستطيـع أن يصمد في وجه تقلبات الزمن، وفي وجه قدرته الهائلة على الهدم والتخريـب، فإنها بكيفية من الكيفيات، أحدُ المظاهر التـي يمكن أنْ يتخذها الخلود، ضمن سلسلة التعاقبات التّحولية، التـي لا تتوقف. وحتى حين يصيبنا التّغيـر والتّبدّل، بحكم امتداد الزمـن (فـي وعينا، وعواطفنـا، وتجاربنا المؤلمـة)، وحتى حين تغـدو جلدتنا، وتجاعيدنا، براهيـن قاطعة على حدوث هذا التّغير والتّبـدل، فإنّ هناك شيئاً ما في الإنسان، شيئاً ما في قرارة أعماقه، في المناطق الأشد حلكة من كنهه، يظل شديد التمسّك بالطفولة، والماضي، والجنس، والأرض، والتقاليد، والأحلام، فيبدو بذلك قـادراً على الممانعة والصمود، في وجه هذه السيرورة المأساوية، وقد صان خلود الروح بالصلاة الخاشعة.

لقـد كان ينبغـي أنْ تعمّ المجتمـعَ أزمةٌ عامة، كـي تعود هذه الحقائـق البسيطة، إلا أنها مع ذلك إنسانية، للطّفو من جديد على السطـح، بـكل عنفوانها وألقهـا الشبابي. فإذا لم نسـعَ بقوة منّا، وبمحبـة، إلـى ممانعة هـذا التيار الجـارف، الـذي لا يألو جهداً لجعلنـا مجرد كائنات مولعة بالفرجـة التلفزيونية، ومحض أطفال

يتميزون بنمو نفسي وعقلي متأخر، على الرغم من أنّنا قد تجاوزنا مرحلة اللعب في الحدائق والمتنزهات، فإنّنا قد نمضي حتماً، إلى حتفنا الحقيقي. ألا فليحفظنا الرّب، من مغبّة هذا المصير.

ترِدُ عليّ الآن، صورُ بعض الرجال والنساء، وهم يصارعون البؤس، والمحنة، وعُسر الحال، وعثرة الحظ، كشأن تلك المرأة الهندية، صغيرة السنّ والحامل معاً، والتي بدتْ لي حين التقيتُ بها في إقليم تشاكو Chaco، أقربَ إلى سنّ الصِّبا منها إلى سنّ النضج، بحيث إنّي ما إنْ شاهدتها، حتى انهمر دمعي مدراراً، لتأثري الشديد لحالها، خاصة أنها ما كفّتْ عن تمجيد تلك الحياة الصغيرة، التي كانت تتخلّق بين أحشائها، وعن مباركتها، رغم شدة المأساة والحرمان والبؤس، التي ظلت تحيط بها، وتثقل كاهلها.

لكمْ يستحقُّ منّا الإنسان – رغم كل شيء – التقدير الكبير! هذا الإنسان الذي هو من أشدُّ الكائنات تفاهةً، وإثارة للسخرية، والذي غالباً ما تسحقه الزلازل والحروب، وتضعه الخطوب الجليلة في مواجهة أعسر الامتحانات، كالحرائق مثلاً، أو الغرق، أو الأوبئة، أو وفاة الأبناء والآباء!

أجل، لا يزال يسكن بداخلي أملٌ عارم، هو ذلك الأمل

المتصل – بكيفية مفارقة! – بوضعنا الوجودي الراهن، الذي يتّسم بالضحالة والفقر، والمتصل كذلك بتلك الرغبة، التي ما ألبث أن أكشف عنها، في الكثير من النظرات، التي تفيد: بأنّ شيئاً كبيراً سوف يضطرنا إلى الاعتناء، اعتناء مفعماً بالحُمَية، بهذه الأرض التي ظلت تحملنا فوق سطحها.

وبينما أنا أتحدث إليكم بهذه الكيفية، إذا برؤيا تلحّ عليّ، موحية لي بأن الكابوس الجسيم، الذي يتهدّد وجودنا، قد أوشك على النهاية؛ وكأنما نحن قد أدركنا بأنّ أي تأمل تجريدي مهما كان، حتى ولو ظل منصبّاً على بعض المشاغل الإنسانية العصيبة، لا يمكنه أن يواسي أياً كان، ولا أن يُلطّف من حدّة الأحزان والمخاوف، التي تداهم المخلوقات البشرية الحقيقية، هذه الكائنات الفقيرة ذات النظرات القلقة (المصوّبة نحو مَن؟ وفي اتجاه ماذا؟)، والتي لا تحيا سوى على الأمل.

ما إن أخذ ثِقْل هذا التعب القديم يضغط على كاهلي، خلال هذه الليلة النوفمبرية/التشرينية، التي أكتب فيها إليكم، حتى ذكّرتني شجرة الأروكاريا araucaria المطلّة عليّ من النافذة، بصديقي تورتوريللي Tortorelli، الذي ظل حبه موقوفاً على الأشجار. لكم كان ذلك الأمر مثيراً بشكل بليغ، إذ كان هذا

الصديق في بعض الأحايين، يعْمَد إلى تقبيل الأشجار، التي توقظ في دخيلته شجنَ تلك الحقبة، التي عمل فيها حارساً من حراس الغابة. لقد ظللنا نشعر برفقته بسعادة غامرة، بينما نحن نقطع في ناحية باتاغوني Patagonie[6]، تلك المواقع والجهات الأشد إثارة ودهشة لنا، كالغابات المتحجّرة مثلاً، وأجمات الآس، والغِيض التي نبتت فوقها أشجار معمّرة، ظلت ترابط هناك على امتداد عهود، وحقب سحيقة. لقد كان هذا الصديق العتيد يقول لنا، بينما يُمرّر راحة يده بحنو كبير، على جذع أشجار الأروكاريا، وأشجار المُرّان الضخمة، التي لا تزال حية: «عليكم أن تتذكروا ولو للحظة واحدة، بأن هذه الشجرة كانت ولا تزال راسية هنا، منذ ظهور واندحار الإمبراطورية الرومانية، ومنذ الفترة التي ظل يتعارك فيها، أهل يونان وطروادة؛ ومنذ أن أقبلَ الروميلوسيون والريموس Romulus et Remus[7]، على تأسيس روما؛ ومنذ الوقت الذي خرج فيه السيد المسيح إلى الدنيا. لقد ظلت هذه الشجرات هنا، منذ سيطرة روما على العالم، مروراً بزمن تفشّى الضعف بين أساساتها، ثم فترة اندحارها. عديدة هي تلك الإمبراطوريات التي عاشت، وماتت، وكثيرة هي تلك الحروب التي نشبت، ثم خمدت، بينما هذه الأشجار يا سادة، لا تزال جاثمة هنا. لقد اشتعلت الحروب الصليبية، وحدثت نهضة

أوروبـا، ووقعـت فـي تاريـخ الغـرب الأوروبـي شتـى الوقائـع والأحـداث، وهـذه الأشجار هي هـي، لا تزال واقفـة هنا، على الـدوام». وكان هذا الصديـق قد ذكّرنا أيضاً، بـأن رياح المحيط الهادئ الرطبة، ظلت تصبّ هواطلها القادمة كلها من هناك، على السفـح الشيلـي، وبـأن أحد الحرائـق إذا ما أتى من هـذه الناحية الجبليـة، فإنه قد يظل بلا علاج، وإذا ما ماتت هذه الأشجار، فإن الصحـاري قد تكتسح الآفاق حتماً، من غير ما رأفة ولا شفقة. ثم كنّـا نرافـق ذلـك الرجـل، إلـى أن نشـرف علـى تخـوم سهب الباتاغونـي، فيدلّنا من هناك على أشجار السرو المفتولة والمائلة، التـي «تحمي مؤخرة السهب»، مثلما كان قد حكى لنا، بالضبط. ولأن تلـك الأشجار عزلاء، فإنها تخوض معركة مصيرها الأخيرة ضـد عثرة الحـظ، وقد بدتْ لنـا رابطة الجأش، وبملامح قاسية أشبه ما تكون بفيلق، من فيالق الموت.

أنـا أؤمـن بالمقاهي، [كأمكنة للتلاقي بيـن الناس، وللتواصل فيمـا بينهم بحميميـة ومـودة]، كما أؤمـن بالكرامـة الإنسانية، والحريـة. إن لي لحنيناً، هو تقريباً ذلك الحنينُ القلق، الذي ينشدّ إلى زمن سرمدي أبدي، إلاّ أنه زمنٌ إنسانيّ، وعلى مقاسنا.

***

الهوامش:

(1) الديسيبيل décibel وحدة قياس قوة الصوت (المترجم).

(2) جـان فرانسوا ميـيـه Jean–François Millet، رسام ونحّات فرنسي، ولد بتاريخ: 4 أكتوبر/تشرين الأول 1814، وتوفي بتاريخ: 20 يناير/كانون الثاني 1875 (المترجم).

(3) نيكـولا بيرديايـيـف N. Berdiaev فيلسـوف روسـي يكتـب بالروسيـة والفرنسية، ولد في: 19 مارس/آذار 1874، وتوفي في: 24 مارس/آذار 1948. التحـق بالحـزب البولشيفي، بعـد أن آمن بالإيديولوجيـة الشيوعية، وصـار بعد ثـورة 1917، أستاذاً بجامعة موسكـو، غيـر أنه سرعان ما فـرّ من روسيا سنـة 1922، ليستقر في بلاد المهجر سنة 1924 (المترجم).

(4) النخـروب هـو التجويـف الذي يصنعـه النحل، كـي يضع فيه العسـل. وبقصد الكاتب بالوحدة النّخْروبيـة unité alvéolaire، العلاقة البنيوية والوظيفية، التي تتأسس ضمن المجتمعات الحداثية، ومـا بعد الحداثيـة، على خلفية غياب التواصـل، حيث كل فرد هو أشبـه بحشـرة منتجـة، تكتفـي بنخروبهـا، فـي عزلـة ووحـدة (المترجم).

(5) إرنيست يونغر Jünger كاتب ومفكّر وسياسي ألماني معاصر،

عاشـ ما بيـن 1895 و1998، وألف مجموعة مـن الكتب الفكرية، ومن التأملات التي نالت شهرة كبرى (المترجم).

(6) باتاغونـي Patagonie، أو مـا يعرف أيضـاً بالمنطقة الجنوبية الكبـرى، هي جزء جغرافي كبير من القارة اللاتينو – أمريكية، تمتد مـن الأرجنتيـن إلـى الشيلـي، علـى مسافـة مئـات الآلاف مـن الكيلومترات (المترجم).

(7) الروميلوس والريموس Romulus et Remus شخصيتـان أسطوريتان، يُعتقَد بأنهما مؤسستان لروما (المترجم).

***

www.booksall.net

الرسالة الثانية:

القيم القديمة

«كانت ثروةُ الأرض كلّها شاخصةً أمامي، غير أن عينيّ لم تكونا مصوّبتين سوى نحو الأشياء، التي ظلّتْ في منتهى الحقارة، وشديدَة الضّآلة... تُرى، أيْنَ كُنّا سنكون، نحن هذه الكائناتِ الإنسانيةَ الفقيرة، لولا الأرضَ الوفية؟ ثم ماذا كُنّا سنَمْلكُ، إنِ انْعدم هذا الجمال والحُسْن الوفيران؟!»

ر. والسير

بعد أنْ جُبْنا مرتفعـاتِ الكيبرادا دي هيماهيـاكا Quebrada de Humahuaca[1] الشامخةَ والمَهيبَة، لساعـاتٍ مديـدة، عُدْنـا قافلين إلى مدينة سالْتا Salta العتيقة، التي كانت في ما مضى حاضرةً جدّ جميلة، فإذا بها هـي تضحى اليومَ، بمعالمَ مغايرةٍ ومختلفـة، لا يُمكـن أنْ يتعرّف فيها المـرء تقريباً، على معالم تلك المدينة الخلاّبَة، التي كانتها، بفعل ما ابْتُليتْ بـه مـن عـدوى انتشـار اللوحـاتِ

الإشهاريــة على واجهة مبانيها، ولامتداد المباني الضاربة في عمق الحداثــة على أرضها كذلــك، وهو الشيء الذي قضى نهائياً، على اتســاق أزقتها، وعلى انتظامها، وهي تلك الأزقة التي ظلت تنتمي للعهــد الكولونيالــي. ومنذ ذلــك الحين، ما عاد أحــدٌ يرغب في إطالــة المكث بين أرجائهــا، وكأنّ هذه المدينــة النبيلة والعتيقة، سالتــا، لــم تعــدْ تظهر للعيــان، بعدمــا ابْتُلِيَــتْ بهــذه الكاسفات العصرية، التي لا تُبقي ولا تذر، خاصة أنها لا تكترث لشيء آخر، عــدا تشييد البيوت بكثافة، اليومَ، كيْ تُهدّمها في يوم آخر، دونما زخرفة تذكر، ودونما تشكيلٍ فنّي متقون لحديدها.

فــي الظهيــرة، زرتُ الكاتدرائيــة القديمة، التــي سيحيي فيها آلافُ المؤمنيــن غداً، عيد معجــزة العذراء Fiesta del Milagro. الكثيــرُ مــن هؤلاء يحجّون إلــى هذه الكنيسة، بعــدَ أنْ يكونوا قد أنفقــوا في سبيل ذلك، أياماً كثيرة يقضونها سيراً على الأقدام، كي يقطعــوا علــى أنفسهم بعض العهــود الأشد بــراءة، ويُصَلّوا ما بدا لهــم، ثــم يلتمسوا مــن الــرّب أن يستجيــب لهم فــي كل ما ظل يعوزهم بشكل كبير، سواء أكان طعاماً، أو صحّة، أم شغلاً.

وبينما أنا جالسٌ بالسّاحة، إذا بهواجسي الدائمة تتنازعني.

لقــد نشــأتِ المجتمعاتُ المتقدّمــةُ على خلفيــة ازدراء القيم

الساميـة، التي تكـون مشتركة بين أفراد الجماعـة، وعلى احتقار المُثـل التـي ليسـت لها مـن قيمة تجاريّـة تُذكر، علـى الرغم من جمالهـا. ومـرّة أخـرى، صـار يتأكّـدُ لي إلـى أيّ حـدّ، غدت التجمعـاتُ السّكنيةُ في بلادنا، بشعـةً وقبيحةَ المنظر، سواء أتعلّقَ الأمـر بمباني بوينس إيريس، أم بغيرها من المدن العتيقة، التي تقع بالداخل.

فما أشدّ درجة الإهمال، الذي ألحقناه بتلك المدن!

إن النفـس ليشقّ عليها كثيراً، أن تشاهدَ صورَ تلك الحواضر، التـي التقطـت لهـا حديثاً، حيـن لا تـزال محافظة علـى طابعها الحضاري المُميّز، بأشجارها، وشُرفاتها المتقنة الصُّنع.

وبينمـا أنـا منخرط في هـذه التأملات، إذا ببصـري يقع على طفـلٍ صغير، هو ربما بين سنّ الثالثة والرابعة من عمره، ظل يلهو، ويمـرح تحت أنظار والدته، فشعـرتُ وكأنّي لمحتُ للتو، تحت أديـم هـذا العالـم – الذي أفقدتْـهُ التنافسيـةُ، والنزعـةُ الفردانية، طلاوتَـه ورونقَه، وحيث العواطفُ وقواعدُ الحوار، ما عاد لها أي وجـود يُذكر، إنْ صـحّ التعبير – بعضَ البقايـا الأثرية، التي تنتمي إلى حقبة زمنية مترعة بالدفء الإنساني؛ بقايا أثرٍ هي أشبه بأطلال مدينة، كانت قـد تعرضتْ للاندثار. ففي طقوسِ اللّعب المتداولة

بيــن الأطفال، ألتقط أحياناً صــدى عاداتٍ وطقوسٍ بعيدة، ورجعَ قيَــم يبدو أن زماننا عفا عليهــا، مرة واحدة للأبد؛ غير أني غالباً ما أفتــأُ ألفيهــا، فــي بعضــ القــرى الصغيــرة، والمناطــق المعزولة والقاحلــة، وأقصــد بذلك قيم المــروءة، والإيثــار، والتضامن في أوقــات المحنة، والتعبير البسيط عــن الفرح، والشجاعة، وطهارة الروح.

لقد ظل الطفل يلهو، ويمرح بين أرجاء هذه الساحة المجيدة، التي سوف تعزف فوقها إحدى الجوقات الموسيقية غداً، أو ربّما ستحتضــن حفلةً موسيقيةً، تُعزفُ فيها القيثارات، مثلما كان الناس قديماً، يفعلون في روخاس Rojas ، أيام الأعياد.

في مــا مضى – وإنّي لأتأسف بشدة لاضطــراري أحياناً، إلى استعمــال بعضــ التعابيــر المصطبغــة بصبغة قديمــة؛ لكن، حين يشْــرفُ امرؤ مثلــي، على طيّ صفحــة قرن بأكملــه... وحين لا يفضــل بحوزته، فضلاً عن ذلك كله، سوى ركام ماضٍ مُمتدٍّ على مسافــة قــرن من الزمــن، فإنه لا يعــرف كيف يتسنّى لــه قطعاً، أنْ يتحاشــى مغبة السقوط، في مثل هذه المطبّات التعبيرية المتقادمة! – وعليــه، أقول إذن، إننا في ما مضــى، وبالضبط لمّا كنتُ مجردَ طفــلٍ صغير في روخاس Rojas، مــا ننْفكّ نتمسّك بالقيم، ونُعنى

بتخليدهـا، وهي قيم ظلت تجعل من الـولادة والحب والمراهقة والمـوت، مناسبـاتٍ لتأدية طقوس، تكون زاهيـة بنفس القدر، الـذي تكون فيه عميقة. لقد ظـل الناس ينفقون أيام عمرهم، ليس في اللهـاث، الذي يتسبّبُ فيه هذا السّباق المحموم ضد الساعة، مثلما هو شائع لدى الجميع اليوم، ولكنْ في ترك حيّز من روزنامة الوقـت، لما هو مُقدّس، ولتنظيم احتفاليات كبـرى، تُمزَج فيها المعتقـدات القديمة، التي ظلـتْ سائدة إلى ذلك الوقت، بطقوس إحيـاء بعض الأيـام، التي تحتفـي بسيرة حيـاة بعض القديسين المسيحييـن. وبإيقاع بطيء للغاية، تظل أيامُ الأعياد والاحتفالات تتوالـى، فتعقبها كذلك أيامُ الاحتفال ببعض المناسبات المهمة في حيـاة الناس، يومـاً وراء يوم، حتى إن الجميـع ليظل ينتظر حلول تلـك الأيـام الاستثنائية بشـوق كبير، سـواء الأطفـال المتراوحة أعمارهم بين ستّ وسبع سنـوات، أو الآباء والشيوخ والمسنّون؛ وهي تلـك الأيام التي يتم فيها الاحتفال بالكرنفال، وبأعياد ميلاد بعض الأفراد، وميلاد السيد المسيـح Noël، وبعيد الملوك jour des Rois الـذي يفـوق كل وصف، وباليـوم الكبير الذي يُحتَفى فيـه بالقديس الشفيع، وبموكبه الطّواف، وبما يُصنع فيه من رقائق تقليديـة، وما يُنظّم أثنـاءه من حفلات تّنكّرية راقصة bals بل حتى

تغيّر الفصول، وتعاقب الليل والنهار، كانا يبدوان وكأنهما يخبئان بعض اللّغْز، مما ينتمي لهذا الطقس الاحتفالي العام، الذي كان يسود وقتئذ، والذي دأبت الأجيالُ تلو الأجيال على تخليده، كما هو مذكور في المحكيات المقدّسة. وكان الجميع يشارك في إحياء هذه الأعياد والحفلات، من المعوزين إلى الميسورين. وإنْ كنتُ أنسى، فإنّي لنْ أنسى ما ظللتُ حيّاً، ذلك الإعجاب منقطع النظير، الذي كنتُ أتابع به سِباق الخيول في روخاس، كما لن أنسى كيف كنْتُ أعشقُ الذهابَ إلى السيرك.

لقد ظلتْ تتعاقب على الناس فتراتٌ زاهية باذخة، وأخرى مأساوية كارثية، بفعل توقف حياتهم على الطبيعة، وعلى نوعية المحاصيل الزراعية، إلا أن الواحد منهم لم يكن يشعر في قرارته، بأنه مُلزمٌ بالعمل دون توقّف، وبالتّدخّل – في كل لحظة وحين – في ما حوله، تحسّباً لما قد يقع، وترقباً لما قد يأتي، مثلما يظنّ نفسه أنه قادرٌ على فعل ذلك، اليوم.

ففي أيامنا هذه، ما عادتِ البشريّةُ تعرفُ للراحة طعماً ولا معنىً، لأنها تعوّدتْ بشكل عام، على النظر إلى الوقت نظرةً نفعية، وصارتْ تستعينُ لتوصيف وقتها، بتعابير وألفاظ دالّة على المردود الإنتاجي. لقد كان الناس في السابق، يعملون بكيفية

يكتنفهـا الكثير مما هو إنساني، بحيـث كان البعض يتحادث مع البعضـ الآخـر، وهو منهمك في إنجاز مهامـه، حتى وإنْ كان ما يقوم بـه شغلاً مكتبياً، أو عملاً يدوياً فـي أحد محترفات الصناعة التقليديـة. لقد كان الإنسان في الماضي، يتصرف في نصيب وافر مـن الحريـة، أكثر مما يتصـرّف فيه الآن، بحيث إنـه صار اليوم، عاجـزاً كل العجز عـن الاستغناء عن التلفاز. فقـد كان في مقدور الناس قديماً، أن يتسلّوا فيما بينهم، وأن يستفيدوا من نوم القيلولة، وأن يلعبـوا فيمـا بينهـم كأصدقـاء عتـاة، دورة أو أكثـر، من لعبة الـورق. وإلـى اليوم، ما زلـتُ أحتفظ في ذاكرتـي، بعبارة كانت رائجـة بشكل كبير بيـن الرجال وقتئذ، حيـث كان الواحد منهم يقـول للآخـر، حين يدعوه للعـب: «تعال يا رجـل، ودَعْنا نلعب فيما بيننـا قليلاً، كي نزجي بعضَ الوقت»، وهو الشأن الذي صار غيـر مقبول البتة، بالنسبـة لنا اليوم؛ كما أني كذلك، ما زلتُ أذكر تلـك اللُّحَيظات الهَنِيّة، التـي أمسى يُقضّيها الرجـال فيما بينهم، وهـم مجتمعـون لشرب بُهشيـات الشاي، والتأمـل في لحظات الغـروب معاً، بعـد أن يكونوا قد جلسوا على تلـك المصطبّات، التـي كنّا نجدهـا دوماً أمام البيـوت. وحين تختفـي الشمس في الأفـق البعيد، وتعود الطيور إلى أوكارها، يُخيّم صمتٌ ثخينٌ على

المكان والرجال أيضاً، هـؤلاء الرجال الذين يبدون للناظر إليهم، وقـد استغرقهم التأملُ والصمتُ، وكأنما هـم يتساءلون عن معنى الحياة والموت.

لقد كانت حياة الناس الفردية والاجتماعية، متوقفة على بعض القِيَـم والمُثل الروحيـة، التي ما لبثت اليـوم أنْ هُجرَتْ، مثل عِزّة النّفـس، وقيمـة الإيثـار، ورباطة الجأش في مواجهـة الشدائد، والمِحـن. وكان المـرء أينمـا ولّى وجهـه، إلاّ ويحسّ بـأنّ القيّم الكبـرى – كالاستقامة، والشرف، ومحبّة العمَل المُتْقَن، واحترام الآخريـن – لا تُشـكّل وضعاً شـاذاً، ولا استثنائيـاً، وإنما هي قيم مُعمّمَـة على أغلـب الناس. فمِنْ أيْنَ كان هـؤلاء يا تُرى، يغترفون نبلَهم، ويستمدّون شجاعَتهم وإقدامَهم، وهم يواجهون الحياة؟

تقـول إحدى التعابير، التي طالما تـردّدتْ هي الأخرى، على ألسنـة الجميع في تلك الفترة، ومـا كنتُ أوليها أنا ما تستحقّه من العنايـة والاهتمام، في حينـه: «سيتولّى الله قضـاءَ الأمر»؛ بحيث ظلّـتْ طريقةُ العيش السائـدة وقتذاك، وطريقـةُ الحياة المطبوعة بسمَـة عدم الاكتراث الشديد، وبالهـدوء المتّزن الذي كان يَبصمُ سلـوكَ الناس، تتوقفـان بكيفيـة لا لبس فيهـا، على ثقـة هؤلاء العميقـة، وغيـر المزعزعة، في الحيـاة. إنّ مـا كان يحظى بعناية

القــوم وقناعتهم، سواء في الســراء أو الضراء، ليس شيئاً نابعاً منهم هُــمْ بالــذات، وإنّما من خارجهم. لقد كانــت النصوص المقدّسة هــي مصدرُ القِيَــم، التي يؤمن بهــا الناس. ومن ثــمّ إذن، اعتُبِرتِ القيم الكبرى عندهم، بمثابة أوامرَ ربّانية.

منــذ ظهوره علــى الأرض، ظــلّ الإنسانُ شديــدَ الاعتقاد في وجــود قوة عليــا خارقــة؛ ولا تكاد توجــد أية ثقافــة، مهما كان نوعهــا، خالية من ذكر الآلهة، والكائنــات الجديرة بالتقديس. إنّ نزعــةَ الإلحــاد ليســتْ نتاجاً فكرياً قديمــاً أبداً، وإنمــا هي وليدة أزمنتنــا الحديثــة والمعاصرة. إذ في القديم، مــا كان بمقدور أحد قطعــاً، أن يتجرّأ صادعاً بمثل هــذا القول: Ves llorar la Biblia junto a un calefon [2]. وإذا مــا ســاور أيّاً كان الارتيابُ في ما أنــا قائله، فإن ما عليه سوى إعادة قــراءة تآليف هوميروس، ليتأكّد مــن جلية الأمــر بنفسه، أو أن يتذكّر تلــك الأساطير القديمة، التي يعــود تاريخهــا إلى فتــرة ما قبــل اكتشاف كريستــوف كولومب لأمريــكا mythes précolombiens. لقــد كان الناس فــي تلك الحقبــة من التاريخ، يؤمنون إيمانــاً راسخاً، بأنهم من سلالة إلهية، بحيــث قــد يكــون كلّ من يستشعــر في نفســه الانتمــاءَ إلى هذه الذريــة، بالطبــع، إمّــاً قِنّاً، أو واحــداً من العبيــد، إلاّ أنه في جميع

الأحـوال، لن يعتبـر ذاته بأنه كائـنٌ متورّطٌ في شرطـه الوجودي العصيـب، أبـداً. وأياً كانـت ظروف حياته المعيشيـة، فإن ما من شيء أو أحد، يمكنهما أن يحرماه من الشعور بالانتماء إلى سلسلة تاريخـه المقدس؛ ومن ثمة تظـل حياته موضوعـة دوماً، تحت أنظار الآلهة.

فهـل في مستطاعنـا أن نحيا اليوم، مـن دون أن يكون للحياة عندنـا، معنـى قائم ودائم؟ لقد قال ألبيـر كامي Albert Camus، بعـد أن أدرك أهمية هذه الخسارة، بـأن أكبر معضلات الاختيار، التـي يعيشها الإنسانُ المعاصر، هـي معضلة معرفته ما إذا كان في مقـدوره أن يغـدو قديسـاً، من غير إلـه. لكـن، «إذا كان الله غير موجـود، مثلما أعلن ذلك من قبـل، كيريلوف Kirilov [3] بتفوق وألمعية، فإنّ كلّ شيءٍ قد يصبح مُباحاً». واستناداً إلى هذه الجملة ذائعـة الصيت، حمّلَ سارتـر Sartre الإنسانَ كامـلَ المسؤولية، رغـم أن الحيـاة ليسـت سوى مجرد عبـث، مثلمـا أوضح ذلك الفيلسـوف ذاتـه. ومن ثمّ، فـإن أكبر الأعمال التـي تُعبّر عن هذه المسؤوليـة، الملقـاة على كاهـل الإنسان، هي سلـوك التضامن؛ لكـن، عندما يتـم إدراكُ الحياة علـى أنها محض سديم وخواء، وعندمـا لا يعـود هناك في السمـاء، البتة، إله جليـلُ القَدْر يجعلنا

نشعـر بآصرة الأخوة، فإن قيمـة التضحية تفقد من حدّة الجذوة، التي تظل ملهمة لها.

وهل بمقدور الإنسان أن يجد ما يشجّعه على التمسّك بسلوك التضامـن، إذا ما أمسى كلُّ شيء نسبياً؟ ثـم هل سيكون بمقدورنا أن نحيا مجردَ الحياة حتى، حينما تنعدم قيمة التضحية؟ إن إنجاب الأطفـال، وتربيتهـم، همـا بالنسبة للآبـاء تضحية، تمامـاً كشأن الاعتنـاء الـذي ينبغـي تخصيصـه للمسنيـن والمرضـى، [والذي يفترض في الإنسان] التنازلَ عـن نزعته الفردانية، ابتغاءَ المساهمة في الخير العـام، وإشاعة روح المحبة بين الناس. إنّ مَن يقدم على التضحية، هو مَـن يفني العمر كله في خدمة الآخرين، ومن يموت فـي سبيـل إنقـاذ ذوي القُربى؛ وعليـه، هل تبقى ثمة مـن تضحية تُذْكَـر، حينما تفقـدُ الحياةُ بالنسبة للإنسـان كلَّ معنى، أو حين لا يتحقق ذلك المعنى، إلا في إرادة الرخاء والنجاح الفرديين، فقط؟

خـلال فترة الصبيحة، بينمـا كنتُ ذاهباً لزيـارة ذلك النُّصْب التـذكاري المُهدَى لـروح الجندي غيميس Güemes[4]، ذلك البطـل الرومانسـي الباسل، إذا بـي أتوقف في منتصـف الطريق، لمتابعـة أطـوار لعبـة الخيـول الخشبيـة الـدّوارة manége de chevaux، الشبيهـة بتلـك اللعـب التـي كانت معروفـة بقريتي،

قديمـاً. ثـم إذا بمشاعـر جيّاشـة تستبدّ بي، وتقبض على خناقي بقـوة، بينمـا أنا على تلك الحال من المشاهـدة، وقد سرحتُ في مرعـى الذكريات السائغة، التي نشأتُ عليها في القرية، وتوحّدْتُ مـع مذاق الأفراح البسيطة، التي كانت تعمّ حياتنا البدوية، التي ما عـاد أمـام أطفال اليوم، مـع الأسف الشديد، سـوى فرصة ضئيلة للتّعرّف عليها.

مـن القيَم الكبرى المُفتقدة الأخرى في أيامنا هذه، هناك قيمة الخجل. إن البعض قد لاحظ دون شك، بأن الناس لم تَعُدْ تخجل مـن أي شـيء أبـداً، وأنّ من المحتمـل جداً أن يُصـادفَ بعضهم شخصـاً ما متّهماً بالتعاطي لرشـاوى مشينة، غير أنه يظلّ مع ذلك يُعاشـر الشرفـاء والمستقيمين، ومـا ينفكّ يضحك مـلء شدقيه، وكأن شيئـاً لم يقع. ففي الماضـي، ما كان من الممكن لعائلة هذا الشخص، أن تتجرّأ على الظهور علناً، ولا على الاحتكاك بالناس مطلقـاً، وأحـرى به هـو بالذات؛ غيـر أن لاشيء من هـذا، صار يدخل في الاعتبار أبداً، إذ من الممكن أن تتمّ دعوة هذا الشخص الآن، ليُشارك إما في هذا البرنامج التلفزيوني أو ذاك، فيُتَعامل معه طيلـة مـدة البرنامـج، بكل أشـكال التوقيـر والاحتـرام الواجب التعامل بها، مع الإنسان النزيه والشريف!

ضمن منظور الإنسان المعاصر، كانت الناس في الماضي لا تنعم إلاّ بقدر قليل من الحرية، ومن ثمة بقيتْ إمكانيةُ اختياراتها محدودةً، ومُقلّصَة للغاية. غير أنّ شعورَ الناس بالمسؤولية ظلّ بحسب وجهة نظري، حاضراً بقوة وكثافة كبيرتين، على الرغم من كل ذلك؛ إذْ لم يكنْ يخطر ببال هؤلاء القوم أبداً، أنهم قادرون حتى، على إهمال الواجبات المُتحتّم عليهم القيام بها، وأن لا يكونوا أوفياء، ولا مخلصين لقطعة الأرض الصغيرة، التي بدا أن الحياة قد وهبتها لهم.

ومن أجدر ما ينبغي أن يحظى بالملاحظة، هو تلك القيمة التي ظل الناس يولونها لشرف كلمتهم. إن الكلمات ما كانت تستعمل لديهم قط، سلاحاً لتبرير الأفعال. في حين صارت كل التأويلات صالحة لذلك اليوم، وغدت الكلمات تستخدم لتبرئة أفعالنا، أكثر مما غدت تستجيب لتلك الأفعال.

أنا لا أرغب في إزعاجكم بهذه الحكايات، التي نُقشتْ على صفحة ذاكرتي. ثم بالإضافة إلى ذلك، من المحتمل جداً أنْ لا يفهم الشباب، ممَن لا يزال غرّاً، طريَ العود، قيمةَ الأساطير، وأهميةَ تلك التجارب الخاصة بالسّيَر القديمة، التي ليست مقصورة على زمن بعينه، والمُحمّلَة بالمعاني، والتي ما تنفكّ تُنير

لنـا الحاضـر. إن على كل تصـوّر للعالم، مثلما قـال ميرسيا إلياد Mircea Eliade[5] – وقـد أصـاب فـي ذلـك – أنْ يُعاش مـن الداخـل، حتى يتسنّى لـه أن يكون مفهوماً؛ ومن ثم، حين يحصل اقتسـام الناس لذلك التصـور، فإن آصـرة الاتصـال تتقوى فيما بينهم، ويتعمّق لديهم الشعور بالانتماء للجماعة.

كان الناس قديماً، يتعارفون فيما بينهم، ولم يكونوا في حاجة إلـى أن يدّعوا، ولا أنْ يزعموا مـا ليس فيهم، لأن تراجيديةَ الحياةِ الخاصـة بكلّ واحد منهـم، ترتسم على مرأى مـن الجميع. هذا الأمـر، بمقدوري أن أثبته، لأن واقعة كـون الناس يعرفونني مثلاً، سرعـان ما تمدّني بسلـوان كبير يخفّف عنـي مأساوية حياتي من جهـة، وتجعلنـي أشعـر إزاءهـم مـن جهـة أخـرى، بالمدينيـة والمسؤوليـة باستمـرار. بينمـا يفقد الإنسانُ، مقابـل ذلك – في الحيـاة المعاصـرة الشائعة بالمـدن الكبرى، حيـث آلافُ الناس يتوزعـون بسرعـة على الأزقة، دون أن ينادي أحـدٌ أحداً بالاسم، ودون أن يعـرف المرء عن الآخر شيئـاً يُذكر، ولا حتى صوب أية وجهة يسيـر – ذلكَ الرابط القمين بشدّه إلى هؤلاء، الذين يجري وجودهم أمام ناظريْه؛ ومن ثمة، يحدث ما يحدث من اللامبالاة، ومن عدم الاكتراث. إن الإنسان المعاصر ما عاد يعيش في حضرة

ساكنــة قريته، وجيرانه، وربّــه، وإنما يعيش في تيه وخوف، وسط الآلاف المؤلفــة مــن البشــر المحيطيــن بــه، الذين إمّــا لا يعرفُ قيَمهم، أو يقتسمُ معهم بالكاد، اللحظةَ التاريخية.

فحيــن تُنسِّــبُ الوفــرةُ الثقافيــة القيــمَ، ومــع ذلــك تسحقهــا «العولمة»، بجُماع قوتها الجبارة، فارضةً عليها شكلاً ثقافياً أحادياً متغطرســاً، فإن الكائن الإنساني، الذي يغدو مُبلْبَلاً وحائراً، لا يعود يعلــم أبــداً، ما القِيَم الخاصة به، ولا مَــن يكون هو بالذات، كما لا يعود يعلم بماذا، ولا بمَن، عليه أن يؤمن. إنني مثلما قال غاندي[6]: «لا أريــد أنْ أسْجُنَ نفسي بين أربعة جــدران، ولا أنْ أغْلِقَ نوافذي بالمصارع والستائر الواقية. أنا أحبُّ أن تَهُبّ على بيتي، ومن كافة الجهــات، ريــحُ وروحُ جميــع الثقافــات، هبوباً يتمتــع بأكبر قدر ممكــن مــن الحرية. غير أنــي أرفض مع ذلــك، أنْ يتهجّم عليّ أيٌّ كان، وأنْ يغلبنــي في عُقر داري. ثم إنني بالإضافة إلى ذلك، أحبُّ أنْ أرى الشباب المتعلّق بالأدب، يخوض في تعلّم اللغَة الانجليزية، أو أيّ لغــة أخــرى، بإتقــان. غير أنّــي لا أريد لأي هنــدي من هذه الأمــة، أن ينسى لغتَــه الأم، أو يُهْملها، أو ينتابــه الخجل إزاءها، أو يعتبرهــا غير صالحة للتعبير عن أفــكاره، وعن تأملاته الأبعد غوراً. إنّ ديانتي لتحظر عليّ، أن أجعل من بيتي سجناً».

يوجـد في بوينس إيريس، الكثيرُ من الرجـال والنساء، الذين يخجلـون مـن تقاليـد بلدهـم. إن العالـم المدفـوع بالرغبـة في «استنسـاخ» الكائن الإنساني، قصـد التّحَكّم فيه، والسيطرة عليه بكيفيـة أفضـل، لسائـر سيـراً حثيثـاً في طريـق جعـل الشعوب والثقافـات تفقـد أصالتها، وغنى اختلافها الزاخـر، وهو أمرٌ بالغ المأساويـة. فمَـن لا يحـبّ منطقتَـه الجغرافية، وبلدتـه، وقريتَه، وقطعتَـه الأرضية الصغيـرة، وبيتَه، مهما كان ذلـك البيتُ بسيطاً وفقيـراً، يصعبُ عليه كثيـراً، أنْ يتعامل باحترام مع الآخرين؛ إذ ما إنْ تفقد كلُّ الأشياء قداستَها، إلاّ ويلفّ الوجودَ غمامٌ مطبق، بفعل ذلـك التوجّه العبثـي المُرّ، الذي يشمل الجميع. وإن هذا لمن بين الأسبـاب، التي تجعلنا نشعر اليوم، بالخوف من الموت، إلى حدّ أننـا جعلنا منه طابوهـاً من الطابوهات. فما عـادت الناس تقريباً، تُقيـم أيّ تجمّع ساهر بجانـب الموتى، وصارت تنظر إلى البكاء، خـلال مراسم الدفن، نظـرةً معيبة، بل نادراً ما صارتْ تُرى، وهي تبكـي موتاها. فإذا لم نحتطْ في هـذا الشأن، سوف لن يكون في مُكنَتنـا عمّا قريب، أنْ نقاسم بعضنا بعضـاً، تفاصيل هذه اللحظة المُلغـزة أبـداً، التي تفارق فيهـا الروحُ الجسد، ويغـدو فيها هذا الأخيـر، بموتانـه، أشبه بمنزل خـالٍ هَجَرَه أصحابُـه مرة واحدة

للأبد، أي هجره أولئك الذين ظلوا يأهلونه، ويتقاسمون فيه قسوة العيش، وأواصر المحبة. والسبب في ذلك هو أنّ لا الحيطان، ولا السقيفة، ولا الأرضية، هي ما يضفي على البيوت روحَ الحياة، وإنما ما يطبعه بطابع الحياة، هو هؤلاء الأحياء بالذات، الذين يعيشون بين ظهرانيه، بجُماع أحاديثهم، وضحكهم، وعلاقات حبهم، وأحقادهم. ومن ثمة، تغدو كلّ تلك العناصر، هي ما يُخصب البيوت بشيء غير مادي، إلا أنه شيءٌ حيويّ عميقٌ، مثلما تخصبُ الابتسامة بالضبط، محيا الإنسان.

إنّ التّنكر للموت، وعدمَ زيارة المقابر، ورفضَ لباس الحداد، كلّ ذلك يُشبه نوعاً من الإقرار المتمسّك بالحياة، وهو الأمر الذي حصل بالفعل كذلك، في حدود معينة بالطبع، خاصة قبل أن تصير هذه المواقف الرافضة واحدةً من الأحابيل المخادعة العديدة، التي اصطنعها مجتمعنا الراهن، من أجل أن يجعل الإنسان لا يكاد يدرك، أو يستشعر أبداً، وضعيات الوجود الواقعة على الطرف النقيض من الحياة، خاصة تلك التي ينخسف ضمنها بريقُ عالمنا الخُلّب، باعتبارها وضعيات الوجود الوحيدة، التي من الممكن أن ترجّ بقوة، مستنقعَ هذه السلبية والخمول، حيث يغوص الإنسان المعاصر. لقد ظل دجون دون John Donne [7]

يقـول، بـأن ما من أحـد يستطيـع أن ينام فـي العربـة، التي تقود السجيـن – رأسـاً – إلى المنصة، التي يقـف عليها حبل المشنقة؛ غيـر أننـا جميعاً مع ذلك، ننـام من المهد إلى اللّحـد، أو إننا على الأقل لسنا يقظى، مثلما ينبغي.

لن نفقه أيَّ شيء يذكر عن جوهر الحياة، دون الوعي الموجع المرتهـن بذلك اللغز النهائي، [الذي نسميه: الموت]؛ وهو الأمر الـذي كانت بعض الثقافـات القديمة قد أدركته، ومن ثمة ناظرتْ بين آلهة الخصب والموت. لقد ظلتْ الأرض/الأم في المعتقدات القديمـة، تسهر على عمليات البِذار وزراعة الأرض، بقدْر سهرها على الموتى كذلك، مادام أن هؤلاء الأخيرين ما ينفكّون يعودون، مثلهـم مثل حبّـات الـزرع، التي تودع التـراب، إلـى الحياة من جديد، على هيئة أخـرى. وكانت النساء إلى جانب ذلك، خاصة فـي بعضـ التقاليد الصينيـة القديمة، عـادة ما تُكفّـنّ في ملابس العرس.

إنّ هـذا الاعتقاد فـي خصوبة الحياة بعد المـوت، هو اعتقادٌ كونـي، يعبّر عن نفسه من خلال بعض الطرق والأساليب الرمزية، التـي تكـون – من دون أن نكون واعين بذلـك، حتى – ماثلةً في شعائـر الموت، وطقوس الاعتناء بالموتى، مثل تلك الشموع التي

توقد في ذكرى فقيد أو فقيدة ما، وتلك الأكاليل التي نضعها على قبور الموتى، احتفاء بنصرهم، نصر العبور إلى المثوى الأخير، تماماً مثلما تُقدَّم أكاليل الغار للأبطال، الذين فازوا في الألعاب الرياضية. ففي المناطق المحيطة بنا، تنتشر بعض الاحتفالات الجميلة بالموتى، مثل الاحتفال السنوي بالديفونتا كورييا Difunta Correa، تلك المرأة الشابة، التي خرجتْ برفقة وليدها الرضيع، بحثاً عن زوجها الذي أسرته أيادٍ مشؤومة، واقتادته إلى جهة بعيدة. وبينما كانت تلك المرأة تسير في طريقها، وسط بيداء قاحلة، إذا بحِمام الموت يختطف منها نبضَ الحياة، ليلفيَها بعضُ الفلاحين في ما بعد، فيحكوا للناس جازمين، كيف أنّهم وجدوا ذلك الصبي المرافق لأمه، وقد ظل يقتات من نهدها، الذي بقي فياضاً معطاء – الأمر الذي قد يبدو في نظرنا اليوم، من قبيل التخاريف التي لا يتصورها عقلٌ – إلاّ أن ذلك التمثّل، لا يخلو من شاعرية مع ذلك، وهو ضاربٌ في الرمزية المستغورة، خاصة من وجهة نظر هؤلاء الأهالي، الذين ظلوا لسنين مديدة، يحجون إلى ضريح هذه المرأة، الواقع وسط البيداء القاحلة، بُغيَة التماسِ شفاعتها وبركتها. ألا ما أشدّ ذلك التأثر، الذي كنّا نشترك فيه مع بعضنا بعضاً، بمقاطعة سانتياغو ديل إسترو Santiago del Estero، ونحن نتقاسم ذلك الطعامَ التضامني، الذي كنّا نسميه

مأدبة الملائكة La comida del Angelito، الذي عادة ما كان يتلو مراسم دفن صبي من الصبيان! إن ثمة رجعَ طنين مقدّساً، وعميقَ الغور، يتصادى بين ألم مَن فقد أحد أطفاله، وبين صوت مَن يأكل من مأدبة الملائكة، وهو ينشج ويبكي، إلى حدّ يجعلنا نعتبر كل ذلك، نوعاً من الصلاة التي ترمز إلى عظمة الأمل في الحياة. ومن ثمة، نقول بأنّ تلك النهاية، التي تصف مشهد الوليمة الشبيه بما أتينا على ذكره، والتي وضعها دوستويفسكي Dostoïevski، لروايته الشهيرة: الإخوة كارامازوف les frères Karamazov، ليست أبداً نهاية اعتباطية، ولا خالية من أية دلالة.

الحرارة لاهبةٌ وغير محتملة في هذه اللحظات، بينما تحيط بالقمر، الذي يبدو بالكاد بدراً، هالةٌ صفراء. لا نأمة هواء في الجو، ولا ورقة من أوراق الأشجار، تتحرك على الأغصان. كل ما في الطبيعة يُعلن عن قدوم العاصفة. أما في البعيد، فتظهر سلسلة الجبال مضاءة، وكأنما هي ديكورٌ في أحد المشاهد المسرحية الليلية؛ ومع ذلك، تبدو البساتين وكأنها مشبعة بعطر الياسمين والماغنوليا magnolia، المكثّف.

لقد فقدَ الدينُ تأثيرَه في نفوس الناس، وبدا أن الأساطير والأديان صارت، منذ حِقَب لا يستهان بها، متجاوزةً مرة واحدة

للأبد، وأن نزعة الإلحـاد قد تعمّمت، بين الذهنيات المتقدّمة في المجتمـع. بيـد أن الإنسان ما لبـث في السنين الأخيـرة، أن نقّل بصـره من جديد صوب الأديان، بحثاً عن شخص ما، من شأنه أن يخلّصه.

قـد يقول قائلٌ إنْ هي إلاّ أساطيـر الأولين، آمن بها الأقدمون، بالأمس. ومع ذلك، دعوني أقول بأن الإنسان ما استطاع أن يسبر أغـوار الكون كلـه، دون أن يكسر العلاقـة المتناغمة، التي ظلت تربطه بالآلهـة، إلاّ حينما تلاحم الجانب الفكريّ والشّعري، ولم يعـودا يُشكّلان غير كيانٍ كُلّيٍّ واحد، يتجلّى فيه الذهن المُخصِب – بالسّحـر – لكلام الناس المتداول في بعض الطقوس، ولتمثلهم للمصائر البشريـة، ولأذكارهم، وصلواتهـم الموجهة للآلهة. أما اليوم، فإننـا لا نملك ولو محكياً واحداً، ولو قصة واحدة، تجمع فـي مـا بيننا – باعتبارنا شعوباً، وبشـراً – وتسمح لنا بترصّد تلك الآثـار، التي نحن مسؤولون عنها، على درب التاريخ. إن سيرورة التحويـل، [التـي عكفتْ على جعل كل ما هو دينـي، لا يُنظر إليه إلا علـى أساس أنه شـيء دنيوي، وخال من أيـة قداسة تذكر]، le processus de la sécularisation، قـد سحقـتْ الأساطيـرَ القديمة، ومحقـت المعتقدات الإنسانية العتيقـة، سواء تلك التي

ظلت ترتبط بالأحياء، أو بطقوس الاتصال بالموتى، أو بسُلط التعميد، أو بطقوس الاستغفار.

ترى، كيف يُعقل أن تصير الحقائق الكبرى، الكاشفة عن قلب الإنسان، سواء في متن أسطورة ما، أو ضمن مؤلف فني معين، مجردَ ترهات وأباطيل كاذبة؟ وإذا كانت المغامرات السخيفة، والبطولات المثيرة للضحك، التي أقدم عليها فارس دي لامانشا الرّث، لا تزال تحرك فينا المزيد من مشاعر الإشفاق، فلأن هنالك شيئاً ما أكثرَ إثارةً للسخرية، من مجرد ذلك الصراع، الذي خاضه فارسنا البئيس مع طواحين الهواء، وهو الشيء الذي ظل يومئ لتلك الحقيقة الميؤوس منها، التي ترتبط بالشرط الإنساني العام. وقسْ على ذلك حالة الأحلام، التي من الممكن أن نقول بشأنها كل ما في وسعنا قوله، عدا أنها ضرب من الكذب، والبهتان. لقد صار كلّ ما لا يستطيع الخضوع لتفسير المنطق، غالباً ما يُنظر إليه نظرةَ تبخيس، بفعل ذلك التقدير الزائد عن اللزوم، الذي صار يحظى به، كلُّ ما هو عقلاني. لكنْ، هل في مقدورنا بالفعل، أنْ نفسر القيم الإنسانية الكبرى، التي تشكّل جوهر الوضع الإنساني – كقيمة الجمال، والحقيقة، والتضامن، والشجاعة، مثلاً – تفسيراً منطقياً وعقلانياً صرفاً؟ إن الأسطورة،

مثلها مثل الفن تماماً، هي نمط تعبيري كفيل بجعل إحدى حقائق الوجـود، قادرة على أن تأخذ شكلاً تعبيريـاً معيناً. وعادة ما تبقى هـذه الحقيقة، فـي جوهرهـا، عصية علـى كل محاولـة تتوخى إخضاعهـا لعمليات التحليـل العقلاني؛ ومن ثمـة، تتحدى دوماً حقيقتُها الواقعةُ على النقيض من حسابات العقل، كافةَ المقولات المنطقيـة، سواء منها المنطـق الأرسطي، أو الجدلي. لقد استطاع الإنسـان، بفضل تجليات ذهنه عميقة الغـور، أن يغوص إلى أبعد حدٍّ ممكن من سطحِ شرطِه الوجودي، وبذلك سمح لهذا العالم، الـذي يعيش بيـن كَنفه، بـأن يكتسب ذلـك المعنـى، الذي ظل يفتقـده. ولهذه الغاية بالضبط، اضطر الفلاسفة والفنانون، في كل مرة كانوا يبحثون فيها عن كيفية التعبير عن المطلق، إلى الاستعانة إمـا بالشكل التعبيري الأسطوري، أو الشـكل التعبيري الشعري. لقد دافع ياسبيـرز Jaspers[8] مثلاً، عن أطروحة مؤدّاها أن كُتّابَ التراجيديـة الكبار، ظلوا يُخصبون أعمالهـم الدرامية في العصور السحيقـة، بنوع مـن المعرفة التراجيدية، التـي كانت تفعل فعلها السحـري في الجمهـور، ومن ثمة تُحوّل طبائعَـه؛ وبذلك، صار هؤلاء المسرحيون الكبار، بالنسبة لشعوبهم، بمثابة أنبياء الإيثوس Ethos [9]. وحتـى سارتـر نفسه، حين حـاول أن يكشف لنا عن

المأساة، التي حلّتْ بالفرنسيين تحت الاحتلال النازي، فإنه التجأ إلى كتابة مسرحية: الذباب، التي لم تكن في العمق، سوى اقتباس لإحدى مسرحيات إسخيلوس Eschyle[10] القديمة، وأقصد بالضبط تلك المسرحية الموسومة بعنوان: الأومينيديون Les Euménidés، حيث ظل أوريست Oreste، بطلها التراجيدي، يصارع ببسالة من أجل الحرية، والانعتاق.

إن اللحظة الأشد إضعافاً لثقافة من الثقافات، هي تلك اللحظة التي يشرع فيها شعبٌ ما، في نعت الأسطورة بالكذب، ويسمها بالبهتان. وإن هذا لعينُ ما حدث في اليونان القديمة، بالضبط. يحكي لوكريس Lucrèce[11]، أنه عاين بعدما انهارت صروح المحكيات الأسطورية، التي كانت سائدة من قبلُ، كيف أن: «قلوباً كثيرة غدت، في قعر كلِ بيت، مثقلة بالهموم والأحزان؛ وأن نفسيات عديدة صارت مُنكّدة بالحسرات، التي لا نهاية لها، وكيف أنها لم تعد تستطيع أن تتخلّص من نكدها، بل وتجد نفسها مجبرة على الاسترسال في نُواح طويل، لا هو مضبوط، ولا قابل للمراقبة، والحصر». إنّ المجتمعات لتنهار، مثلما تنهار أساسات بيت من البيوت، ما إن تفقد أساطيرُها الزخمَ الوجودي، والقيمة.

تُصاب ضمن عملية الإفقار هذه، مُقدّراتُ الروح الأبعدُ غوراً – وهي مقدّرات جدّ أساسية، في حياة الإنسان – بضمور وهزال كبيريـن، كمقدرة العاطفة مثلاً، والقـدرة على التخييل، والغريزة، ومقـدرة الحدس، التـي تسمح للإنسـان بتطوير ذكائـه الفعّال، وموارده العملية والوظيفية، إلى أقصى حدّ ممكن.

من غيـر المجدي بالمرة، النزوع إلى عرض القضايا العصية علـى الإحاطة، بالاستناد إلى بعض التعاريف والحدود اللغوية. إن لاجدوائيـة الخطابات – سواء منها ما هـو فلسفي، أو ثيولوجي، أو رياضـي، وهي اللاجدوائية التي تصبـح واضحة للغاية، خاصة حينمـا يتعلق الأمر بإيجاد جـواب ما، من شأنه الردّ على مثل تلك الأسئلة الأنطولوجية الكبرى – تشي بأن الوضع الإنساني النهائي والأخيـر، هو وضع متعالٍ، وبالتالي ملغـز، وغير قابل لأن يُكون موضوع إحاطة.

عندمـا عبّرتُ عن هذا الرأي سنة 1945، في روايتي المعنونة: رجـال وقبـور Hombres y engrenajes، تعرض العديـد مـن المثقفيـن لكتابي ذاك، بهجوم شديد وساخر. لكن الإنسان اليوم، أمام هذا العطب، أو هذه النكسة، التي مُني بهما العقل، وأصيبتْ بهمـا السياسـة، والعلم؛ غدا يتأرجح وحده فـي الفراغ، من دون

القدرة على إيجاد مكان ينتمي إليه، لا في السماء ولا في الأرض، فتراه مخنوقاً بفعل تلك الموجة الإعلامية الجارفة، التي ليس في مقدوره أن يتمثّلها، والتي لا يجد له من معين عليها، ليمدّه وهو تحت رحمتها، ببعض المدد.

«فهل من الممكن أن نبقى صامدين، ومستمرين على سطح الحياة، رغم المخترعات، والتقدم التكنولوجي، والثقافة، والدين، وعناصر المعرفة الكونية كلها؟». ليس في وسْعنا سوى الإجابة بالإيجاب، عن سؤال ريلكه Rilke الآنف الذكر، حتى وإنْ كنّا نحزن، ونتحسر على تلك المشروعات، التي لم تتحقق بعد، لأن الحكمة تقتضي أن يبقى المرء مخلصاً، لشرطه الإنساني العام. فما الذي أحلّه الإنسانُ محلّ الله، إذن؟ إنه ما تحرّر قطُّ، لا من طقس التقديس، ولا من شعيرة رفع القرابين إلى المذْبح. إذ في الوقت الذي لم تعد لا محال تقديم الأضاحي، ولا أماكن التضحية بالنفس، هي ذات المذابح الراهنة، فإن الإنسان المعاصر لا يزال يُبقي مع ذلك، على المذبح الذي صار يبدو الآن، على هيئات كثيرة منها: رغد العيش، ومداهنة النفس، وتعظيم آلهة الشاشة الكبار.

إنّ الشعور باليُتْم المُعمّم بكثرة بين الناس، في عصرنا الحالي،

هو شعور ناجمٌ عن انهيار القيم المشتركة، والمقدسة. فإذا كانت القيم نسبية، ولا يتم الانخراط فيها إلا كما ينخرط الناس، نظامياً، في نادٍ رياضي معين، [فإنه يجدر بنا أن نتساءل]: كيف سيتسنى لنا حينئذ، أنْ ننْفلت بقوة، من الشقاء والفقر؟! وإنّ هذا لهُو ذلك السبب، الذي يفسّر بالضبط، وجودَ كلّ ذلك الكمّ الهائل من البشر اليائسين، والقانطين، والذين يكادون يشرفون على الانتحار؛ كما يُفسّر كذلك، لماذا صارت العزلة مخيفة جداً، وضاغطة بقوة. ففي بعض المدن الضخمة، والآهلة بالسكان، مثل بوينس إيريس، يعيش ملايينُ الناس في حالة من الخوفِ والقلق الدائمين. وتمتلئ الساحاتُ الكبرى، بأشخاص يعيشون عزلتهم بمفردهم؛ وما يحُزّ في النفس كذلك، هو منظر ذلك الشباب المُحبَط، الذي غالباً ما يجتمع أفراده لتعاطي الكحول، أو المخدرات، بشكل مشترك فيما بينهم، مقتنعين بأن الحياة تخلو من أي معنى، أو هدف، إلى حدّ أنهم ينتهون إلى الاقتناع في قرارة أنفسهم، وبشكل فظيع، بغياب أي مطلق في الوجود. وإني لأذكر كيف ظلتْ مختلفةً للغاية، عزلةُ القرية! لقد كانت عزلةَ ذلك السهل المترامي إلى ما لانهاية، وهو الأمر الذي ظل يُحرّك في دخيلة الناس، نزوعَهم الطبيعيّ نحو التديّن، وانشغالهم

التلقائي بأمور الميتافيزيقا. فليس من قبيل الصدفة أبداً، أن تنشأ الديانات الثلاث الكبرى في عزلة الصحراء، أي ضمن ذلك الفضاء المترامي حدّ البصر، والذي يُلخّص – بكونه كذلك – استعارةَ العدم، حيث يُدغَم لا محدودُ الطبيعة، في المحدود والمتناهي الإنسانيين. إنّ الفكر المعاصر ليعتبر نفسه، بأنه تجاوز تجاوزاً عريضاً، تلك الشعوب القديمة التي أنشأتِ الأديانَ السالفة الذكر، في حين أن الحقيقة قد ظلتْ تعني، بالنسبة لهذه الشعوب، نوعاً من الاكتشاف، وشيئاً ظل يستدعي الدهشة. ففي عالمنا المعاصر، تعاطى الإنسانُ بالاستعانة ببعض الأنساق الذهنية والمنطقية، إلى البحث عن الجواب [الذي يسبر فيه عن خبايا تلك القضايا] الكبرى الملغزة، وهو الأمر الذي جعله يعتقد في قرارته، باعتداد كبير بالنفس، بأنه أكبرُ من قامة كل هؤلاء، الذين ظلوا يعتمدون في حياتهم، وفي فهمهم للأمور، على العناية والتصرف الإلهيين. غير أن هذا العقل البشري المتعجرف، سرعان ما لقنته صروفُ الحياة العديدَ من الدروس، إلى الحدّ الذي صار معه الإنسانُ المعاصر، مستعداً لفتح العين على بعض المعتقدات، التي باتت لسنوات طويلة، في عِداد المرذول والمرفوض.

إن سعـي الإنسان اليـوم وراء الدين، هو سعـيٌ قائم بشكل لا ريـب فيه. ذلك «أن ساعة الأسطـورة – مثلما قال يونغر Jünger – سوف لـن تخلف موعدها أبداً، لتحلّ في الوقت المناسب؛ بل إنهـا قـد شرعت منـذ الآن، في التّحرّك. بل إنهـا زيادة على ذلك أيضـاً، ما ظلتْ إلا مرابطة هنا، منـذ الأزل، وقد تطفو – مثل كَنز كُشِف الأديم عنه – فوق السطح، في اللحظة الملائمة».

لقـد شرع الشباب، بكيفية مختلفة، فـي استكشاف الأديان؛ لكـنْ، علينـا أن لا ننخـدع بهـذا الأمـر، لأن استكشـاف هؤلاء للديـن، لا يكون فـي الأغلب الأعم، إلا بكيفية سطحية سرعان ما تجعـل تلك الأديان قابلة للتّكيّف مع هكـذا نمطٍ حياتي، ولذلك تصبـح بمثابـة ركـن صغير ووثيـر، يلتجـئ إليه هـؤلاء في بعض اللحظات، دون الشعور بـأن عليهم بعض الاقتضاءات المفروضة عليهـم دينياً، ودون إدراكهـم لأسرار العقيـدة، التي تنطوي على حقيقة الإيمان.

أنـا لا أذكر هذا بدافع الحنيـن، إلى زمن خرافي ولّى وانقضى أبـداً، إلى زمنٍ يدفعُ كلّ مَن عاش فيه، إلى رفع عقيرته بالمفاخرة، والتباهـي. وإنمـا ينبغي الإقـرار وحسب، بأنّ أغلـب القيم ظلت محترمـة وقتذاك، لأن الناس لم تكـن تحدس في ملماتها، بطريقة

عيشـ أخرى، غير تلك الطريقـة المشبعة بالقيم والمثل. إنّ معرفة الثقافـات الأخرى، تفتـح في وجه الإنسان آفاقـاً جديدة، وتمنح الحيـاةَ بُعداً آخر، ومنفذاً آخـر للخلاص. غير أن البشرية ما فتئت أن هَوَتْ بين أحضان عولمة طامسة، هي تلك العولمة التي عوض أنْ تكـدّ في البحث، عن كيفية أخرى للتقريب بين كافة الثقافات، صـارتْ تفرض عليهـا نموذجاً واحـداً ووحيداً، يسجـن الثقافة الإنسانيـة في نظام شمولي واحد. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل شـيء، فـإنّ الإيمان الذي يمـلأ قلبي، ما ينفـكّ يدفعني دفعاً، كي أتفـاءل بـأن الإنسان قـادرٌ مُجدّداً، علـى استعادة القيـم السامية الكبرى، قبل سقطتـه الكبرى، وعلى تمثلها في حياته، وذلك من خـلال اختيـاره لهـا، بالحرية التـي يُواجههـا، بتدبير مـن العناية السماوية، في أيامنا هذه.

تحت شمس الكيبرادا دي هيماهياكا،

[تلك السلسلـة الجبلية الصامتة، التي كانت] شاهدةً على ما مضى من معارك ومذابح،

يتموّج الرّيُيو غْرانْدي، مثلما يتموّج زئبقٌ برّاق.

[لكم مضى أمام هذه الجبال الشامخة]، من جيوش الإنكا،

ومن قوافل الأسرى،

ومن صفوف المتمردين،

ومن فيالق الفرسان الوطنيين.

مَن كان يجري مع التيار،

ومن كان يسير ضدّه!!!

[كلّ هؤلاء وأولئك قضوا]،

لتحُـلّ بعدهم ليالي الصمت المطبق، حيث لا يكادُ يُسمَع من جديد، إلاّ وشوشة الرِّيُو غْرانْدي،

وقد تفوّقَتْ ببطء،

ولكن بأمان،

علـى كافة تلـك المعارك، التـي خاضها الناس، فيما بينهم، بضراوة،

والتي لشدّ ما بَدتْ وتبدو عابرة!

ها نحن نصل إلى ساحة مدينة سالتا Salta، فنختلط بالحُجّاج، الذيـن شدّوا الرِّحـال إلى هذه الأرض، بعدمـا ظلوا يسيرون على

الأقـدام، أياماً وليالي متتابعـة، مخفورين بإيقا ع أناشيدهم الدينية. وحيـن تتفحّص في وجـوه القوم، وتُمْعِـنُ النظرَ فـي سُحناتِهم، تستوقفكَ شدّةُ استنفادهم، وبؤسهم، وتجعّد بشرتهم، إلاّ أنك لا تستطيـع أن تنكـر أبـداً، كيـف هـم واثقون مـن أنفسهـم، ومن عقيدتهـم، وكيف لا يزالون ينشدون، بمصاحبة آلاتهم الموسيقية الريفيـة. إن سلامة الطوية مـا تلبث أن تُولَـد، بالجوار منهم. ولا تكمـن المعجزة إلاّ فيهم، هم بالـذات. إن المعجزةَ هي أن هؤلاء الرجـال، لا يساومون في قيمهم الخاصة، ولا يتنازلون عنها البتة، علـى الرغم من أن كل ما يكسبونـه في الحياة، لا يسدّ إلا بالكاد، رمـقَ أُسَرِهم. إن المعجزةَ هي أنّ المحبّـة لا تزال صامدة وباقية، علـى وجـه الأرض، وهـي أن الأنهار لا تزال تجـري بالمياه، في حين أننا أبدْنا الكثيرَ من أشجار الأرض!

***

الهوامش:

1) الكيرادا دي هيماهياكا Quebrada de Humahuaca شِعْبٌ عميق واقع بين مرتفعات جبلية، تقع في الجهة الشمالية الغربية من الأرجنتين، ولها شهرة سياحية واسعة النطاق (المترجم).

2) تلك كلمات أغنية من التانغو لإينريكي سانتوس ديسيبولو Enrique Santos Discépolo، ويمكنها أن تترجم حرفياً، كالآتي: «إنّك لتَرى الإنجيل ينوح باكياً، بالقرب من مِرْجَل»؛ الشيء الذي يعني أن ثمة نوعاً من اللعب، المراد به التضحية بالقيم الثقافية (هذا هامش من إنجاز مترجم النص إلى اللغة الفرنسية).

3) كيريلوف Kirilov شخصية روائية، من بنات خيال دوستويفسكي، في رواية: الممسوسون (المترجم).

4) مارتان ميغويل دي غيميس Güemes (1785/1821)، جندي أرجنتيني وطني، لعب دوراً بطولياً في معركة التحرير الوطني بالأرجنتين (المترجم).

5) ميرسيا إلياد Mircea Eliade، مفكّر وباحث كبير في تاريخ الأديان، وعلم الأساطير. ولد في بوخاريست سنة 1907، وتوفي في شيكاغو سنة 1986، تاركاً أبحاثاً كثيرة ثرة، أفادت الفكر

الإنساني، لاهتمامها الموسوعي الكبير، في الحفريات الفكرية للإنسان (المترجم).

6) المهاتما غاندي Gandhi (1869/1948)، زعيم سياسي وروحي للهند الحديثة والمعاصرة، صاحب نظرية اللاعنف، التي قاوم بها الاحتلال البريطاني، ونالت على إثرها الهند استقلالها (المترجم).

7) دجون دون John Donne (1572/1631)، شاعر إنجليزي شهير، نال استحقاقه بطبيعة المُسْحَة الميتافيزيقية، التي طغت على أعماله الشعرية (المترجم).

8) كارل ياسبيرز Jaspers فيلسوف وطبيب نفس ألماني (1969/1883)، وممثل للنزعة الوجودية المسيحية (المترجم).

9) تعني لفظة إيثوس Ethos (الإغريقية) حرفياً: السلوك. بمعنى الانضباط الواعي والعقلاني للسلوك الفردي، داخل الجماعة (المترجم).

10) إيسخيلوس Eschyle من كتّاب التراجيديا الإغريق المشهورين، من أهم أعماله: بروميثيوس المغلول (المترجم).

11) لوكريس Lucrèce فيلسوف وشاعر لاتيني، عاش في القرن الأول قبل الميلاد. من أهم ما اشتهر به، عن الطبيعة De rerum natura، وهي قصيدة طويلة تصف العالم، من وجهة نظر مبادئ أبيقور picure (المترجم).

***

الرسالة الثالثة:

بين الخير والشر

كنتُ متأكّداً هذا الصباح، من أن الريـاح التـي ظلّـتْ تهبُّ مـن جهة الجنـوب الشرقـي، ستحمـل إلينـا الأمطار، إلاّ أنـي سرعان ما لبثت أن أدركـتُ فـي النهاية، بأنـي أخطأتُ التقدير. صَفَتْ صفحةُ السماء بشكل سريع، بعـد أنْ كانت من قبل، ملبّدةً بغيوم رمادية كثيفة؛ بحيث ما كادت فتـرة الظهيـرة تنتهـي، حتى لـم يعدْ يحجـبُ زرقة السمـاء المعتادة، ولو

«تتمثّل إنسانية الإنسان في اكتراث هذا، بآخر غيره».
إ. ليفيناس

سحابةٌ رصاصيةٌ واحدة. وهكذا قادني سوءُ تقديري هذا، البسيطُ والهَيّـن، بشكل مخاتل وغيـر محسوس، إلى التسـاؤل عن تلك الأخطـاء الكبرى، التـي يرتكبها المرءُ على امتـدادِ شريط حياته. وبينمـا أنـا علـى هذه الحـال، إذا بذهنـي يتوقف فـي نهاية ذلك الطـواف التأملـي الطويـل، الـذي عبـرتُ فيـه محطـاتِ أحلامٍ وذكريات بعيـدة، ليستقرّ على صورة أمي، وهـي شاخصة أمامي أثناء تلك الظهيـرة، التي زُرتها فيها بلابلاتا La Plata[1]، لأجدها جالسـة لا يظهـر منها غير الظهـر، أمام الخـوان الكبير الموجود بقاعـة الأكل، وحيدةً شـاردةَ الذهن، مما يعنـي أنها ظلت هكذا مُنشـدّة إلى شريط ذكرياتها، وسط العتمة الخفيفة، التي كان يغرق فيهـا المكان، بعد غلق النوافذ، بلا أنيس يؤنسها إطلاقاً، عدا تلك التكْتَكـة المطـردة، التي ظلت ساعـةُ الحائط القديمـة تصدرُها. كانـت أمي من دون شك، تسترجع ذكريات ذلك الزمن الجميل، الـذي كُنّـا نتحلّـق فيـه جميعـاً، حـول طاولـة التشبينديـل Chippendale الكبيـرة، ذات الطـراز الإنجليزي، حيث يجلس والـدي في طرف منها، فتتواجه معه أمي في الطرف الآخر، بينما يتوسّطُنا ما لذّ وطاب من الأطعمة، وتحليات ذلك الزمن المجيد. لقـد كانت أمي أثناء تلك اللحظات المشبعة بلوعة الحنين، تتذكّر مـن دون شك كل هـذا، وتستعيد كذلك ذكرى أخي بيبي Pepe،

وهـو يقصّ علـى مسامعنا محكياتـه المعتادة، التي لـم تكن غير أكاذيـبَ بريئةٍ مختلقة اختلاقاً، من طينة ذلك الفولكلور المألوف بين العائلات.

ومـا إن رأتني أمـي، حتى همى الدمْعُ من مقلتيْها، ليغطي على كلتا عينيها، بينما انْبَرى فمُها يكرّر على مسمعي، كدأبها المعتاد، بـأنّ الحيـاة ليست سوى مجرد حلـم. بينما بقيتُ أنـا انظر إليها بصمـت، وهي علـى تلك الحال من السرحـان الذهني، لأنني لم أكـن أبتغـي التسبّب في تغيير مجرى أفكارهـا، خاصة أنها كانت مأخـوَذة بطقس تلـك الرؤيا، التي اختزلت لديهـا تسعين سنة من المشاهـد الخارقـة. ثم ما لبثـت أنْ قصّتْ عليَّ بعـد ذلك، وهي تتوقف بين الفينة والأخـرى، كالمُرتشِف كأسَه جُرعَة ثم أخرى، بعضَ ما عاشته في قريتنا روخاس Rojas، وفي غيرها من الأماكن المتفرقـة الأخـرى، مثلما حكتْ لي كذلك عـن أسرتها الألبانية، إلـى أنْ أذن الوقـت بمفارقتهـا. تُرى، هـل كان ينبغـي عليَّ، أن أغادرهـا؟ فاضت الدموع مرة أخـرى، من عينيها. غير أنها ظلت رابطـةَ الجأش، شديـدةَ العـزم، لأنهـا كانـت تنحدر مـن عائلة محاربين أشداء، حتى ولو أنها ظلت تنكر ذلك، باستمرار.

رأيتها مـن جديد، تقف على عتبة الباب، كـي تُشيّعني، وهي

تُحـرّك يدهـا ببطء، حركـةً فريدة لا تـكاد تُنسـى. وقتها، كانت أشجـار الزقـاق على مـا يبدو، قد شرعـت منذ وقت، فـي إنزال كلـكل لغزها المسائي الصامت، على جنبات المكان كله. أدرتُ رأسي إلى الخلف مرة أخرى، فإذا هي تعيد حركةَ يدها المودعة، بشكل خجول. ثم سرعان ما بقيَتْ ورائي، وحيدة.

ظلتْ أعمالي زمنئـذ، تستغرقني استغراقاً تاماً، إلى حدّ أني ما استطعـتُ أنْ أدرك بأنـي كنتُ يومهـا، أرى أمي بكامـل عافيتها للمـرة الأخيرة، وهي تقف لتُشيّعني عند بـاب البيت؛ كما أني ما قدّرتُ أيضاً، بأن آلام ذلك الوداع سوف تظل تلاحقني، وتتعقّبني إلـى أبد الآبدين، مثلما تفعل بـي الآن، في هذه الليلة المتقدمة من العمر، التي ذكرتها فيها، وقد استبدّ بي طقس البكاء.

بيـن ما نرغبُ في أنْ نحياه، وبين القلـق غير السّامي المستبدّ بأغلـب أوقاتنا وأيامنا، هناك صدعٌ في الروح مفتوحٌ على الدوام، لا ينفـك يحـولُ بين الإنسان، وبيـن حُظوة استمتاعـه بالسعادة، ومـن ثمة يغدو وضـع ذلك الإنسان في الوجـود، كوضع المنفي المُبعـد قسراً، عن مسقط رأسه. والسبب الذي جعلني في ما بعد، أشعـر بما شعـرتُ به، هو أني كنتُ في تلك الأثناء – بينما جثمت أمـي بلا حراك فـوق العتبة، لا تجد في نفسهـا على الإطلاق، أيةَ

جـرأة للإبقـاء على ابنها بالقرب منها، بـل ومن دون أن تكون في نيتهـا أية رغبة للقيام بذلك أصـلاً – خائضاً في غمار الجري وراء أوهامـي المحمومـة، منـذ وقت غير يسيـر، وقد اعتقـدتُ بأني أستجيـب بتلك الكيفية، لنداءات الميول الأشد غوراً في أعماقي، فظللـتُ كمَـن صُمّـتْ أذنـاه، لا أكثـرت لنـداء أمـي الخاضـع والصامت. وحتى إنْ لم يُساهم الانخراط في المعرفة العلمية، ولا فـي الحركة السريالية، ولا انخراطـي الملتزم في صفوف الحركة الثوريـة، فـي إرواء قلقي المطلـق، فإني ما كَفَفْتُ عـن الزعم مع ذلـك، بأنـي تعاطيتُ لكل ما ظـلّ يستهويني، ويخلـب لبّي. لقد ظلت حمايتـي، على مدرج هذا الدرب غيـر النقي، والمتناقض، مثـل حـال المسـارات الإنسانيـة كلهـا، مضمونـةً بفعـل ذلك الإحساس الحادس بالحياة، وذلك العزم الثابت وغير المحصور، إزاء مـا ظللتُ أعتقد في قرارتي، بأنه حـقٌّ. لقد ظل الوجود يبدو لي، بالصورة التي بدا بها لبطل رواية: الغثيان La Nausée[2]، أي أشبـه بمتاهة عملاقة، هُلاميـة ودَبقَة، وليس لها أيّ معنى؛ فظللتُ أشعـر في أعماقي، على غرار تلك الشخصية الروائية تماماً، برغبة مستعـرة ذات طابـع صـاف، وبنيـة فولاذيـة صقيلـة، واضحـة ومقاومـة. وبقدر ما ظلتْ تقتحمني ديامسُ العالم الليلي، وتنقضُّ هاجمـةً علـيَّ، بقدر مـا بقيـتُ مُتَمسِّـكاً بالكـون الأفلاطوني،

والسبب في ذلك هو أنه كلما كانت الضجّة الداخلية عالية، نميل أكثر فأكثر، إلى التّحصّن خلف أي نظام من الأنظمة، مهما كان نوعه. ومن ثمة، تَحولُ أعمالُنا بهذه الكيفية، وكلُّ ما ننكبّ على إنجازه من بحوث، وما نتفرغ له من مشروعات، بيننا وبين رؤية تلك الوجوه – وجوه الكائنات، التي كان علينا تحديداً، أن نصاحبها، ونحميها – والتي سرعان ما تفرض علينا نفسَها في ما بعد، فتغدو وكأنما هي رُسُلٌ حقّة، بعَثَتْ بها إلينا حصيلةُ ما قضينا العمرَ كلّه، في الجري وراءه.

ألا ما أضيقَ حَيّز الأوقات، التي صرنا نخصّصها للأشخاص المسنّين! والآن، وبعدما غدوْتُ أنا كذلك شيخاً هرماً، لا تكاد تلك الحركةُ البطيئةُ المودّعَة من يد أمي، تفارقُ ذهني بالمرّة، وسرعان ما تُعاودُني ذكراها مراتٍ ومرات، أثناء هذه الفترات المثقلة بكلكل الوحدة والعزلة، التي ما تنفك ترتبط حتماً بسنّ الشيخوخة؛ إنّي لأراها كلما فكّرْتُ بحزن، في تلك البلبلة الناجمة عن صروف الدهر، وفي ذلك الصدود الذي يجعل أهل هذا الزمان، يعرضون عن كبار السّن، آباء وأجداداً، وكلّ مَن ندين له بالحياة. إن «تقدّم» مجتمعاتنا يدفعنا دفعاً إلى إقصاء جميع الكائنات، التي لا تنتج. فلكم أُبْعِد هؤلاء، وعزلوا عُنوةً في

معتقل وحدتهم القاتلة، وتُركوا لقمةً سائغة، تنهشُها أفكارُهم الصّامتة! ألا ما أفظع هذا الوضع، يا إلهي! ولكمْ افتقدنا من احترام كثيرٍ، ومن إقرار بالفضل كبير! فأي تخريب وإتلاف لم يعمّمْهُ الزمنُ بعدُ، على مسار حياتنا، وأي هاويات لم ينثرها بعدُ، وأي أوهام لم يَخْبُ بريقُها بعد، بفعل برْدِ الأعاصير، وتوالي الهدم، وموت العديد من المشاريع، ومن الكائنات التي كنا، ولا نزال، نحبّها؟!

كلما شعرتُ بالألم، جرّبتُ الصعود إلى الأعالي، في محاولة مني للبحث عن ملاذ، عادة ما أجده في قمة الجبال الشامخة، لأن هذه الجبال هي موقع التحصّن والمنعة؛ ولأن الجبل بات موطناً نقياً وصافياً، فقد دأبتُ على الصعود إليه، كلما شعرتُ بأن القذارة قد بلغت بين العباد، مبلغاً لا يعود لي معه أي طاقة على التّحمّل؛ [بل إني لألوذ به لوذاً]، في كل مرة قضّتْ فيها مضجعي، فكرةُ أن الزمن ليس سوى مجرد كينونة عابرة، لكوني مقتنعٌ بأن الخلود، هو سيد ذلك العلو الأشم، المسيطر والمقيم الأبدي، حيث لا زوالَ ينازعه، ولا عبور. غير أن إشاعات الناس ظلت على الدوام تلاحقني، بعد أن تكون قد تسلّلتْ من بين فرجات ذلك الحصن المنيع، فأسعى حينئذ أنا بالذات، إلى

التعالـي والتسامـي من خلال مرقى النفس، ذلـك أن العالم لا يقع خـارج ذواتنـا وحسب، وإنما هو كامن كذلـك في أعمق موضع مـن قلوبنا. إلاّ أنّ هذه القمة الجبلية الافتراضية العفيفة، التي عادة ما نلوذ بها داخلنا، سرعان ما ينكشف أمرها إلينا، سواء في عاجل الأيـام أو آجلهـا، فتظهـر وكأنهـا مجـرد نسخة [للقمـة الجبلية الحقيقيـة]، ومجـرد هـروب من الواقـع، لأن العالـم الذي نحن مسؤولـون عنـه، لا وجود له بالفعـل، إلا هنا/تحت: وهو وحده العالـم، الذي بقدر ما يفرض علينا أقسـى الآلام، ويُكبّدنا أفدح الهزائـم، بقدر ما يبقى مع ذلك، العالم الأوحد الذي يمنحنا ذلك الامتـلاء الوجـودي الحـق، وتلك الدمـاء، وذلك قبس الناري، وذلـك الحب، وتلـك الانتظاريـة الطويلة للمـوت، وهو جماع الأمـور التـي تحـرّك سواكننا، وتفعمنـا بالحيوية. إن هـذا العالم الأرضـي هو ما يهدينا، في لحظـات الغسق بستاناً، ولمسةَ يَدِ مَن نَهْوى.

وبينمـا أنـا آخذ فـي الكتابـة، إذا بصـورة أمي، التـي تركتها لوحدتهـا خلال سنوات حياتها الأخيرة، تستبدّ بذهني من جديد. لقـد قلـت منذ وقـت لا يستهان به، بـأن حياة الإنسـان ما كانت سـوى سلسلة طويلـة من الخطـط والمشاريع المتواليـة، وهو ما

يمنحهـا بـكل تأكيد، طابعَ السّمـو المميّز لها، غيـر أنه يعيقنا مع ذلـك، بكيفية مؤلمة وحزينة، ويحول بيننا وبين إصلاح أخطائنا، والرجـوع القهقرى إلى ما ومَن أهملناه، ذات حين. فلا شيء مما ولّـى وانقضى، بإمكانه أن يعاود الحدوث من جديد، ومن ثم فإن لا الأشيـاء تبقـى مثلما كانـت، ولا الإنسان – كبيـره وصغيره – يبقـى على حاله بالمرة، تمامـاً مثلما كان ذات يـوم. فما أفظعَنا، ومـا أشقانا، حين نَفقِدُ مرة واحدة وإلى الأبد، نظرةَ ذلك الطفل، الذي كُنّاه!

انظـري! ها قدْ جعَلَتْنـي الكلماتُ البريئَة، أتمتّـعُ أخيراً بنعمةِ شَبابٍ جَديد،

ومثلمـا كانَ يحدثُ لي في السَّابق، هـا هِي ذي الدموعُ تَملأُ عَيْنيّ.

أنا ما زلتُ أذكرُ أياماً بعيدة خلتْ،

والأرضِ التي أمْسَـتْ شاهدةً على مولـدي، تُبهِجُ من جديد روحي المفعمة بالوحدة؛

وما زلت أذكرُ البيتَ الذي تَرَعْرعتُ فيه،

محاطاً بفيض دُعائك، وبركاتك،

ذلك البيت الذي شبّ الطفلُ، مطوّقاً بالحُب، بين أركانه، وسرعان ما غدا كبيراً.

آه! لشدّ ما خطر ببالي، مرات، أني قد أكون لك العزاء،

حينما رأيتُني أذهب إلى البعيد، ضارباً بعصا الترحال بين أرجاء هذا العالم الفسيح، وقد استَفْرغتُ كل الجهدَ في الأشغال.

لقد تجرأت كثيراً، وحلمت كثيراً، فأصيب الفؤادُ جراء كل ذلك بالكلوم، لشدة ما قاومت؛

غير أنكم استطعتم – يا أحبتي – أنْ تتداركوني بالعلاج! ولسوف أتعلم مثلك، يا أمي، كيف أعيش، وكيف أحيا، ردحاً من الزمن الطويل؛

إنّ الشيخوخة لحظةٌ وديعة، وبارّة،

ستأتي عبرها إليك: لذا، فلتمنحي مرة أخرى، ابنَك الصغير هذا، بركاتِك،

حتى يتسنّى للرجل، الذي صاره، أنْ يحقّق بتلك الكيفية، وعودَ الصبي.

هولدرلين

فـي خضم موجة اليأس والقنوط، التـي تكتنف رؤيتي للعالم، كنـتُ عادة ما أريـدُ إيقاف زمـن الطفولة. أجل، كنـتُ أشعر في قـرارة نفسي، كلما رأيتُ الأطفـالَ متحلّقين حول بعضهم بعضاً، فـي زاويـة مـا من الزقـاق، وقـد انهمكوا فـي حديث مـن تلك الأحاديث السرية الكتيمة، التي لم تكن تحظى بأية أهمية من لدن الكبـار، بضـرورة تجميد اندفاعة سيـر الزمن، إلـى الأمام. [لقد كنـتُ أشعـرُ حينـذاك، بضـرورة ملحّة] فـي تأبيد وضـع هؤلاء الأطفـال هنالك، جنب الطوار، وقد تحلقوا حول عالمهم السّار؛ وبضـرورة عدم السمـاح لكافة القـاذورات، الصـادرة عن عالم الكبـار، بـأن تمتدّ إلى هـؤلاء الأطفـال، كي تكْلِمهـم، وتكسر دواخلهـم. إن هـذه الفكـرة هي بالطبع غيـر مقبولة، لأنهـا أشبه بجريمـة قتـل الحياة، غيـر أني غالباً مـا تساءلتُ مـع نفسي، عن درجـة التلويث التي تطـال روحَ الأطفال، وعن درجة إفساد براءة تلـك الروح، بفعل مـا يساهم به نظامُ التربيـة. صحيح أن الطبيعة الإنسانيـة مـا تفتـأ أن تعـدّل – دون توقـف – مـن خصائص الشخصيـة، ومشاعرهـا، وطبيعتهـا، إلا أن الثقافة تبقى مع ذلك، هـي المسؤول الوحيـد عن تشكيل تلـك الرؤية، التـي يكتسبها الأطفالُ فيما بعد، عن العالم.

من المُلِحّ والعاجل، أنْ يقع التفكيرُ في تربيةٍ وتعليم مختلفين، يُلقّاننا بأنّا نعيش على أرضٍ ينبغي الاعتناءُ بها غايةَ الاعتناء، وبأنّ حياةَ الناس متوقفةٌ على الماء، والهواء، والأشجار، والطيور، وعلى كافة الكائنات الحيّة الأخرى، وبأنّ كلَّ ضَرَر نُلحقه بهذا الكون العظيم، من شأنه أنْ يضع مستقبل حياتنا في خطر، ومن الممكن أن يلحق بها دماراً كبيراً. قد يصير التعليم شيئاً آخر بالطبع، لو أنّا – عوض أن نفرض على الأطفال، كمّاً هائلاً من المعلومات، التي لم يستطع أحد قط، أن يحتفظ بها كاملة في ذهنه – ربطنا التعليم بصراع الأجناس من أجل بقائها، وبالضرورة الملحة للحفاظ على نقاء البحار والمحيطات، وسلامتها.

ينبغي إشعارُ الأطفال بالخطر، الذي يتهدّد الكوكب، وعدم التكتّم عليهم بشأن تلك الفظاعات الكبرى، التي كانت الحروب قد تسببتْ فيها، فتكبّدتها الشعوب. إنه لمن المهم جداً، أن يحس الأطفال بأنهم جزء لا يتجزأ من التاريخ، الذي ساهم الكبار – بجُهدهم ونَصَبهم الكبيرين – في وضعه، غير أنهم ارتكبوا فيه كذلك، بعض الأخطاء القاتلة. إن البحث عن حياة أكثر إنسانية، ينبغي أن يكون الصّرح، الذي يبنى عليه نظامُ كلّ تربية وتعليم. وإن هذا لهو السبب، الذي يجعلنا نرى أنّ ترك الأطفال يقضون

ساعـات كاملة أمـام التلفزيون، وهم يتلعـون – بأذهان متبلدة – جميعَ أصنـاف العنف الممكنة، أو تركهـم منهمكين في ألعابهم الإلكترونيـة، التـي تمجّـد الهـدم والتخريـب، هـو مـن الأمور الجسيمـة جداً. إن بمقدور الطفل أن يتعلـم كيف يصبّ اهتمامه علـى الأمر الجيـد والحسن، لا أن يَسْقُط صيـداً رخيصاً في ذلك الشـرك، الـذي ينصبه لـه الجو الاجتماعـي العام، وكـذا وسائل الاتصـال. لقـد صار من غيـر الممكن لنا اليـوم، أن نواصل قراءة القصـص لفائدة أطفالنا، من صنف تلك التي تحكي عن الدجاجة القصيـرة، ذات اللون الأشقر، وعن كتاكيتهـا الصغار، بينما نَسِمُ تلك الحيوانات العـذابَ الأليم، ونذيقها من الألم أشكالاً فظيعة. إننـا لا نستطيـع أن نخـدَع أطفالنـا، بخصوص المظاهـر غيـر العقلانيـة، التـي تتحكـم فـي الاستهلاك، وفـي أوضـاع الظلم الاجتماعـي، وفي أوضاع البؤس التي لم يعد من الممكن تجنبها، وفـي أعمـال العنف المتسَيّـدة في المدن، والسائـدة كذلك على مستوى علاقـة الثقافات المختلفة، ببعضها بعضـاً. فلو أننا صرنا بعضـ الشـيء واضحين في تربيتنـا وتعليمنا، لفهـم الأطفال بأننا اقترفنا في هذا العالم، خطيئةَ الإسراف الكبرى.

كان غاندي قـد مجّدَ التربيةَ الروحية: تربيـةَ القلب، وإصْحاء

الـروح؛ لـذا من الجديـر جداً بنا اليـوم، أنْ نفهمه: ذلـك أن أول بصمة تتركهـا المدرسة والتلفزيون، منطبعةً على روح الطفل، هي بصمـة التنافس، والانتصـار على الرفقـاء، وهي النزعـة الفردانية الأشـد إيغـالاً في النفس، التـي تَرْتكز على أن تكـون للطفل رغبة دائمـة في احتلال المرتبة الأولى في الدراسة، ورغبة في الانتصار. إننـي أعتقد بأن التربيـة، التي نشحن بها أذهـان أطفالنا، هي تربية مولّـدة لشرٍّ تقدّمه على هيئة خير: إن حجر الزاوية في تربيتنا، يقوم علـى النزعة الفردانية، وعلـى التنافس. فأنْ تُدرَّس التعاليم الدينية المسيحيـة وتعاليم التنافس فـي ذات الآن، وأنْ يُحَضّ على النزعة الفردانية، وعلى النفع العام، وأنْ تُملأ آذانُ الأطفال بخطب الوعظ الطويلـة، في موضوع التضامن والتآزر، الذي يتناقض كل التناقض مـع السعي المحموم نحـو تحقيق النجاح الفـردي، الذي ما نفتأ نهيـئ الأطفال عليـه؛ إنّ كل ذلك ليُحدث في أنفسـ هؤلاء، لُبْساً من النوع الكبير جداً. نحن في أمسّ الحاجة إلى مدارس، يتمّ فيها تشجيع التوازن بين المبادرة الفردية من جهة، وعمل الأفراد داخل مجموعات من جهة أخرى، وذلك بإدانة النزعة الفردانية الهوجاء، التي يبدو بأنها بمثابة ذلك الإنذار، الذي يحذرنا من نشوء مجتمع الغـاب المتوحـش Léviathan، الـذي تحـدث عنـه هوبـس Hobbes[3]، حيث «الإنسان هو ذئب لأخيه الإنسان».

ينبغـي علينـا أن نتعلم من جديد، ما معنى اللذة. فلشدّ ما تهْنا، وانحرفنـا عن المعنـى الحقيقي لتلك الكلمة، حتـى صرنا نتوهم بـأنّ اللذة، ما هـي إلاّ تبضّعٌ، وعمليـةُ اقتناء! إن التـرف الحقّ le véritable luxe هـو الاتصـال مع الآخر، وإنفـاقٌ للحظة صامتة أمـام عناصر الخلق والإبداع، وهو تلـك السعادة التي يمتعنا بها، عمـلٌ فني مـا، أو عملٌ من الأعمال المتقنـة الصّنْع، وحسب. إن اللـذات الجديرة بهذا النعـت، هي تلك التي تمـلأ فسحة الروح بالامتنان، وتهيئنا كي نحب الآخرين. لقد علّمتني حكمةُ الحياة، واقترابـي مـن النهايـة الحتميـة، كيـف أتعـرّف علـى المسرات العظمـى، التي تقدمها لنا الحياة، حتـى ولو بقي ذلك غير ممكن بشـكل كبير، ما دامت الإنسانية لا تزال ترزح، تحت وطأة الآلام الفظيعة، وتعاني من المجاعة.

إن نظـام التربيـة ليـس مستقلاً عن السلطة، ومـن ثم فإن هذه الأخيرة تعدّ بمثابة الإطـار المرجعي، الذي يوجّه أهداف التربية، ويحـدد لهـا المرامـي والغايـات، فـي سعيها إلـى تكويـن أناسٍ متوافقيـن مع اقتضـاءات النظـام، ومتطلباته. وإنّ هـذه لسيرورةٌ حتميـة، لا مفرّ لنـا منها، وإلا أسهمت التربيـة في تكوين عاطلين حقيقييـن، ورجال ونساء رائعين، غير أنهـم «مقصيون» من عالم

الوظيفـة، والشغل. لكن، إذا لم يقع التوازن بين هذا التوجه العام، وبين تربية تقوم على أساس تقديم الوقائع مثلما هي بالفعل، وذلك عـن طريـق تحفيـز نمـو المقـدَّرات، التـي يتهدّدهـا التخريب والإتـلاف، فإن الخاسر الأول والأخير سيكون هو الإنسان. وفي هذه الحالة، لن ينجو سوى بعض المحظوظين، الذين سيستطيعون في نفس الآن، ملء البطون مثلما ينبغي، وتوفير المأوى، ومصادر دخْـل كافية، بالإضافة إلى اكتساب ذهنية مثقفة، والفوز بالحظوة والقيمة. [في هذه الحالة إذن]، لن يكون من السهل إيجاد الطريق التربوي، الذي يسمح للناس ببلوغ الوظائف المهمة، وتوفير سبل حيـاة تسنـح بتوفير إمكانيـات الخلق والإبـداع، أو مزاولة بعض الأنشطة الكافية على الأقل، لتغذية العقل والروح.

إن التاريـخ مـا يلبث أن يجدد نفسه، باستمـرار. أما الإنسان، وبعـد أنْ أصابه بريـقُ اللحظة الراهنة بالعمـى، فإنه لا يكاد يتوقع تقريبـاً، أي شيء مما قد يقع. وإذا ما نجح في توقع وجه من أوجه المستقبـل، المختلف عـن الحاضر، فإن ذلـك لا يعدو أن يكون أبـداً، إلا وفق صـورة يتفاقم فيها وضع الحاضـر، أو على صورة مظهـر فجائي، يُعاكـس الحاضر تمـام المعاكسة، عندمـا تَصْدُر التغيّـراتُ عن وقائـع، لا يمكن التعرّف عليها في حينه، أو يصعب

علـى المرء علـى الأقل، تقييمها تقييماً دقيقـاً. وإنني لأشعر اليوم، إزاء دنو ذلك الأجل السامي [= الموت]، بأن أزمنة جديدة تزخر بما هو روحي، تنتظر الإنسانية شريطة أن نستوعب بأن كل واحد منّـا، يملك من القوة أكثر مما يعتقد أنه يملكه، للتصرف ضد هذا الشـرّ المحـدق بالعالم. لـذا، علينـا أن نتخذ القـرار المناسب، [للتصرف بإنسانيةٍ في هذا العالم].

ببُـطءٍ شَديد، بَدأ نهـارٌ جديدٌ يطلعُ على بوينـس إيريس، نهارٌ أشبـهُ مـا يكونُ بتلك النهارات، التي طلعـتْ منْ قبل، منذ أن كان الإنسانُ هو الإنسان.

من خـلال نافذتـه، أبصـرَ مارتان صبيـاً يجـري، وهو يضع صُحُـفَ الصبـاحِ تحتَ إبطه. ربمـا كان الصبيّ يجـري، ليزرع الـدفءَ في جسدِه، أو لأنَّ المـرءَ في مثل هذا النوع من الأشغال، عليـه أنْ يتحـرّكَ ربما، بأقصـى سرعةٍ ممكنة. ثـم إذا بكلب تائه شبيـه ببِونيتـو Bonito، ينقّـبُ في صنـدوق القمامة. ومن خلال نافذتـه دائماً، أبصر مارتان امـرأةً لا تزال شابة، هي أشبه ما تكون بهورتينسيا Hortensia، كانت تتجه صوب مقرّ عملها.

ترى ماذا قال برينو Bruno، يومذاك؟ قد تكون الحرب ربما، فعـلاً مـن الأفعـال العابثـة، أو أنها قـد لا تنجم إلا عـن خطأ من

الأخطـاء؛ ومع ذلك، فـإنّ الكُبّة التي نحن جـزء من خيطها، هي شيء ينتمي للمطلق.

إنّ هنـاك علـى سبيـل المثـال داغكانجيلـو D'Arcàngelo، وهورتينسيا.

وقد يكون كلبُ واحد كافياً[4].

إنّ الإنسانَ – خاصة روحَه – ليتأرجح بين الانجذاب للخير، ذلـك الحنين الخالـد السّاكن بيـن جوانحنا، والـذي ينشدّ نحو المحبة، وبيـن الانجذاب للشَّرّ الذي يغوينا، ويستبدّ بنا في أغلب الأحاييـن، حتـى من دون أن ندرك مدى المعانـاة، التي قد تُنزلها تصرفاتُنـا بالآخرين. لقد قادتني سلطةُ الشّرّ المُستَبدّة بالعالم، إلى أنْ أكرّس نفسي على امتداد سنوات بأكملها، للدفاع عن نمط من التفكيـر المُشْرب بنزعـة مانويـة manichéisme[5]، [سأوضحه كالتالـي: لقد ظللْتُ أقول بأنـه] إذا كان الله موجوداً، وكان خيراً غيـرَ محدود كلَّـه، وكان متمكّناً من قدرته الكُليـة، فإنه لا محالة مُكبّـلٌ في مكان ما من الأمكنة الخفية، لأن ما من أحد يراه؛ بينما الشـرّ هو في المقابـل لذلك، هذه البداهة التـي لا تحتاج إلى مَنْ يُبرهن عنها. ويكفي في هذا السياق، أن نذكّر ببعض الأمثلة، التي تبـرز بداهة الشـرّ الواضحة للعيـان، كأعمال هتلر [فـي أوروبا]

مثـلاً، وأعمال التعذيب التـي مورست بوحشية علـى الناس، في أمريـكا اللاتينيـة. إننـي كلمـا فكرتُ في هـذه الأمـور المشينة، أجدنـي لا أكفّ عن ترديد أن الحيوانات أفضل منّا حالاً، وأحسن بكثيـر. ومع ذلك، مـا أعظم قـدْرَ الطِّيبَة والخير، ومـا أبلغ تأثير حضورهمـا، وسـط كل هـذه الأعمـال الوحشيـة والعنيفة [التي عرفتها، ولا تزال تعرفها البشرية]!

إن الطّيبـةَ والشرّ أمران لا يمكن الإمساكُ بهما، لأنهما كيانان متعايشـان فـي نَفْسـ كلِّ واحـدٍ منّـا. ولذلك، فإنهمـا يشكلان بالتأكيـد، واحداً من أسرار النفس البشرية العظمى. إن هذه الثنائية المأساويـة للنفسـ البشرية، ما تفتأ صورَتُهـا تنعكس على صفحة وجـهِ كلٍّ منّـا، تلك الصفحة التي تَعْبُر فوقهـا ببطء، ولكن بشكل حتمي، بعضُـ المشاعر والأشواق، وبعضـ العواطف والأحقاد، وبعضُـ ما يتسرّب إلـى القلوب، من إيمانٍ، ووهـمٍ، وخيبةِ أمل، وذكرياتِ الموتى، سـواءٌ أولئك الذين حضرنا لهم، لحظةَ مفارقة الـروح لأجسادهم، أو أولئك الذين لم نحضر لموتهم أبداً، وإنما وردَ علينـا نَعْيُهـم؛ [كما تنعكس صـورة تلك الثنائيـة المأساوية المتعايشـة فينا، على صفحة وجهنا أيضاً]، كلمـا عَبرتْنا ذكرياتُ فصـولِ الخريف، التي أحزنَتْنـا وأنهكَتْنا، وتجـاربُ الحبّ التي

سحرتنا، وذكرياتُ هؤلاء الأشباح الذين يعودوننا إما في الحلم، أو في حلم اليقظة، أو تراهم يهجمون علينا بغتة، تاركين آثارَهم فينا؛ وكلما شدّنا منظرُ العيون التي تذرف، من فرط المعاناة والآلام، دمعاً مدراراً، أو منظرُها وهي تُغمَض، كي تفسح للحلم مجالاً، أو تُغمَض بفعل الحشمة والخفر، أو بدافع التَّحايُل؛ وكلما شدّنا منظرُ الشّفاه المزمومة، إما بدافع التعنّت والتصلّب في الرأي، أو بسبب إظهار أمارات القسوة؛ ومنظرُ الحواجب المقطّبة، إما شعوراً بالقلق، أو نتيجةَ الإحساس بالمفاجأة؛ أو منظرُها وهي ترتفع إلى الأعلى، إما للتعبير عن الفضول، أو التلميح بالشك؛ [كما تنعكس صورة تلك الثنائية المأساوية المتعايشة فينا، على صفحة وجهنا] كلما شدّنا أخيراً، منظرُ الأوداج المنتفخة، إما بسبب السّعار والهياج، أو بدافع شبقي محض. في كل ذلك، ترتسم معالمُ الخريطة الصامتة، التي ما تنفكّ الروحُ تَحفُرها حفراً، فوق بَشَرة الوجه الناعمة اللّدنة. إن تلك الخريطة الصامتة للنفس البشرية، سرعان ما تغدو هكذا – بحسب طبيعة المصير المقدّر لها – ظاهرةً للعيان، بفضل تلك المادة التي هي في ذات الآن سجنُها، وإمكانيتُها الوحيدةُ التي تحيا بها.

كان الفـنّ هـو الميناء، الـذي رستْ عليـه سفينتـي المحمّلَةُ بالرغبـات بصفة نهائية، بعدما ظلّ الموجُ يتقاذفها، وسط البحار. ومـا حدث هـذا، إلا حين أخذ مني الحـزنُ والتشـاؤمُ مأخذاً لا يُستهـان بـه، ومكثا يفتكان بروحـي إلى حدّ أنهمـا ظلاّ، كحال النـدوب بالضبـط، يقترنان بتركيبـة وجودي مرة واحـدة، وإلى الأبـد. لكنْ، ينبغي عليَّ أنْ أعترفَ بـأنّ معارضتي لطابع العَرَضية والـزّوال، ومـا انتابني إزاء ذلـك من غموضٍ، ومـن نظرةٍ مفعمة بالسّوداوية، هي العناصرُ التي بوّأت الأدبَ تحديداً، تلك المكانة الخاصة التي ظلّ يحتلها، في حياتي.

يجـدُ كاتـبُ المقـالات الفكرية نفسَـه ملزماً، أثنـاء الكتابة، بالحفـاظ علـى التماسـك، وعلى صرامـة الخط المتصاعـد أثناء تَشَـكُّل المعنـى، وهـو السبـب الـذي عادة مـا يجعـل الكينونةَ الإنسانيّة تنفلت من بين فرجات أصابعه. بينما في الكتابة الروائية، تبقى الشخصية محافظةً على غموضها، وعلى لُغْزها، مثلما تكون فـي الحياة الحقة، وما الواقع الذي يظهر في مؤلف من المؤلفات التخييلية، إلا مجرد واقع تمثيلي. فأي روسيا هي روسيا الحقيقية؟ أهي تلـك التي تمثلهـا شخصيـة أليوشيا كارامـازوف Aliocha Karamazov، التقـيّ، والـوَرع، والمـداوم علـى التوجـع،

والمتسامـح، أم هي روسيا المتمثلة فـي شخصية سفيدريغايلوف Svidrigailov، التـي هي شخصيةُ الوغدِ النّذل؟! ليست روسيا لا هذه ولا تلك، أم أنها بتعبير أدق، هي هذه الشخصية وتلك، معاً. إنّ الروائـي هـو كل شخصيـة من شخصياته على حـدة، وهو في ذات الوقـت، جُماعُ المتناقضات التـي تمثلها تلك التعددية. فهو مؤمـن، وفي نفس الآن كافر، كريمٌ وفي ذات الحين لئيم، متزمّتٌ وشَبقـيّ، أو أنـه لكذلك على مدى بعض الفتـرات المختلفة، من وجـوده. ثم ما دام أن الفرد هـو أكثر اكتمالاً، فإنّ كينونته لا تبدو بفعـل ذلـك، إلا أكثـر تناقضاً. وقسْ على ذلك، حـال الشعوب ذاتها.

ليسـ مـن قبيل الصدفـة، أن يقـعَ التقاطـعُ بين تطـور جنس الروايـة، والتطـور الحاصـل في الأزمنـة المعاصـرة. إذ أين كان سيتسنـى لإلهات الفـوري الهائجـات Les Furies[6]، أنْ يجدنَ مـلاذاً، لولا وقوع ذلك التقاطع؟! فكلمـا مارست ثقافةٌ ما القمعَ عليهـن، أصابهن الغضب، وغـدا هُياجهن أشدَّ قسـوة، مما كان عليه. كثيراً ما يتم الكلام في الآونة الحديثة، عن الإنسان الجديد، بهـذه الكيفية المطلقة والمميزة. غير أننا لن نتمكّن أبداً، من خلق هـذا الإنسـان، ما لم نساهم في جمع كل مـا يختصّ به، وإحصاء

كافة ما يتعلّق به، من صفات وعناصر صغرى. فهو كينونة متفتّتة، بفعل سيطرة هذه الحضارة العقلانية، والمركّبة من مواد لدائنية، ومن حواسيب. ففي الثقافات الكبرى، كما في الأعمال الفنية، عادة ما تكون القوى الغامضة مُتضمَّنَة في العمل الفني، بغَضِّ النظر عن موقف التّقزّز أو الحشمة، اللذين قد يثيرانهما فينا.

تعني كلمةُ «شخص» في ما تعنيه: القناع، ولكل واحد منا أقنعةٌ كثيرة. لكن، هل ثمة من بين كلّ تلك الأقنعة، القناع الحقيقيّ الذي يمكنه أن يُعبّر عن ذلك التعقّد والغموض، المميزين للشرط الإنساني المتناقض؟

أتذكّر في هذا المقام كلاماً، كانت شخصية برينو الروائية، قد أوردته، [حين انبرتْ قائلة]: من الأمور المروعة على الدوم، أنْ ترى إنساناً مقتنعاً في قرارة نفسه، بأنه بكيفية كلية ونهائية وحيدٌ، لأنّ في ذلك الإنسان بُعداً تراجيدياً، وربما فيه أيضاً حتى بُعد مُقدس، كما أن فيه – في ذات الآن – بعداً فظيعاً ومخجلاً، كذلك. إننا نضعُ على الدوام، مثلما سبق لبرينو أن قال، قناعاً ليس هو نفسُ القناع أبداً، لأنه يتغيّر بتغيّر تلك الأمكنة، التي تقودنا إليها أقدارُنا في الحياة: إن هناك قناعَ الأستاذ، وقناعَ العاشق، والمثقف، والبطل، والأخ العطوف... لكنْ، أيُّ الأقنعة نضع، أو

علـى العكـس أيها ننـزع يا ترى، كلمـا آمنّا بـأن لا أحد هنالك، ليلاحـظ علينا، أو ليراقبنا، أو ليستـرق السمع إلينا، أو ليلتمس منا شيئـاً، أو ليتضـرع إلينـا، أو ليأمرنـا بـأن نفعـل هـذا أو ذاك، أو ليهاجمنـا؟ ربمـا تـؤولُ قدسيّة هـذه اللحظة، إلى كـون الإنسان حينـذاك، يبقى وحيداً في مواجهة الـرّبّ، أو أنه يكون على الأقل كذلك، في مواجهة وعيه العنيد.

ألاَ مـا أشـدّ ما تخفيه الأقنعة، من دمـوع! ولكم سيغدو القيام بحركـة في اتجـاه الآخرين، أمراً سهلاً ويسيراً، لـو أنّنا نُقْدِم على ذلـك، ونحن نعترف في قرارة أنفسنا، بحاجة بعضنا البعض لتلك الخطوة، عوض تصنّع القوة، وإظهار التماسك! ولكم من الشرور يمكننـا تجنبهـا، إذا ما توقفنا عن تقديم أنفسنا كما لو كنّا مكتفين بشخصنـا بالذات، وتجرأنا على الاعتـراف بأننا في حاجة حيوية إلى الآخر، كـي نستمر في الحياة، تماماً مثلما يكون العطشى في الصحراء، وهو بالفعل ما عليه حالنا!

يحضرنـي الآن، مقطعٌ سرديّ مـن تأليف [الكاتب الفرنسي] سانـت إكزوبيري Saint–Exupéry، وهـو المقطع الذي يحكي فيـه، كيف بقي الرجـلُ برفقة ميكانيكيّه الخاص، دون قطرةِ ماءٍ واحـدة تُخفّف عنهما حِـدّة العطش، الذي ألـمّ بهما طوال ثلاثة

أيـام متتالية، بعـد هبوطهما الاضطراري بالطائـرة، في الصحراء. لقـد وصف الكاتبُ كيف أن العطش بلغ بهما مبلغاً عظيماً، حتى إنهمـا اضطـرا إلى لعْـقِ قطرات النـدى، التي كانـت تنتشر فوق حديد الطائرة، مع الفجر. وبينما أخذ الهذيان يدب إلى ذهنيهما، شارعـاً في العبث بهمـا، إذْ بَدَوي علـى ذروة الجمل، يبصرهما مـن فوق ثلة رمليـة بعيدة، ويتقدّم إليهما. لقـد كان ذلك الرجل، الـذي ينتمي إلى بدو الصحـراء الرّحل – مثلما كتب إكزوبيري – أشبـه بإله يسير فوق المـاء المتموج، حين تقـدّم صوبهما يمشي على الرمل:

«لقـد اكْتَفى الأعْرابـيُّ فقط، بالنظر إلينا. وبعـد ذلك، ضَغَط بيدَيْـه على كَتفيْ كلٍّ واحـد منّا، فاسْتَجبْنا لـه طائعَيْن. ثم تمدّدْنا علـى الرمـل. هنـا، ما عاد للعِـرْق وجـودٌ، ولا للّغَة وجـودٌ، ولا للتّقْسيمـات الفئويـة كذلـك، وجـودٌ... هنا، لا وجـودَ إلا لهذا البدويِّ الفقير، الذي وضع على كتفيْنا، يَديْن ملائكيتيْن».

وبعدمـا وصف الكاتبُ الماءَ، بكيفية لا تكاد تُنسى أبداً، تابع مضيفاً:

«أمّـا أنتَ، يا بدويَّ الصّحـراء الليبيّة الذي أنقذَ حياتَيْنا، فإنّك لنْ تبرح – مع ذلك – ذاكرتي، إلى أبد الآبدين. أنا ما عدْتُ أذكرُ

تفاصيـلَ وجهِك، بالمرّة. لكنْ يكفيني أنك تختزل عندي، جنسَ بنـي آدم كلَّه، إلى حـدّ أني صرتُ أراك فـي ذات الوقت، بوجوه الناس كافة. أنتَ لـمْ تتفرّس في وجهيْنا مطلقاً، ومع ذلك سرعان مـا تعرّفْـتَ على الإنسان فينا. إنّكَ لأخٌ حبيـب. وها إنّني أتعرّف أنا بدوري، عليك في كل الناس.

إنّـك لتتجلّـى لي، يا كبيـرَ القَدْر، يا مَن له قـدرة إرواء عطش البشـر، في صورة السّابِح فـي ماء النّبالة والعطف الرَّؤوم. إن كافة أصدقائـي وأعدائـي ليمشون – فيك – إلـيّ، حتى ما عاد لي ولو عدو واحد، في هذا العالم».

تميّـزت الأزمنـةُ المعاصـرةُ باحتقارهـا للصِّفـات الجوهرية الأساسيـة للإنسان، ولقيـم اللاوعي. فقد أخـرج فلاسفةُ الأنوار اللاوعـيَ من البـاب، بركلة، إلا أنـه ما لبث أن عـاد متسللاً، من النافـذة. والحـال، أنّنا نعلم منـذ العهد اليونانـي، إنْ لم يكن قبل ذلـك بكثيـر، بأنـه لا ينبغـي ازدراء إلهات الليـل، أو بالأحرى لا ينبغـي إقصاؤها وإبعادها، لأن ردود فعلهـا تكون انتقامية حينئذ، وبطريقة أشد فتكاً، وبقلب تنعدم فيه الرحمة.

يتأرجـح الإنسان بين الطهارة والإثـم، وبين الجسد والروح، وبيـن الخير والشر. وأفظع الأشيـاء، وأحمق ما ارْتُكِب على وجه

الإطلاق، منذ عهد سقراط، هو محاولة حظر هذا الجانب المعتم من الإنسان. إن هذه القوى [المعتمة واللاواعية] هي قوى لا تُغلب، ولا تُقهر البتة. إذ كلما حاولنا تدميرها، لبدتْ في الظل، ثم سرعان ما تتمردُ علينا في الأخير، وتهاجمنا بشراسة ونزوع للشر متزايديْن.

لذا، ينبغي [أولاً] التسليم بتلك القوى، ثم العمل في نفس الوقت، على الكفاح من أجل الخير كفاحاً لا هوادة فيه. إن الأديان الكبرى لا تكتفي بمدح الخير وحسب، وإنما تأمر الناس بالقيام به، وذلك هو ما يُبرهن على وجود الشر، بصفة دائمة. إن الحياة توازنٌ مهول، بين [موقف] الملاك و[موقف] الوحش. ومن ثم، فإننا لا نستطيع – وما ينبغي لنا أن نفعل، أبداً – أن نتحدث عن الإنسان باعتباره على الدوام، ملاك. لكن، إذا كان ذلك الأمر مرفوضاً، فإنه لا يعني أنّ علينا التّحدث عن الإنسان، وكأنه وحشٌ وحسب، لأن الإنسان بقدر ما هو قادر على القيام بأشد الفظاعات هولاً، هو قادر أيضاً على الاضطلاع بأكبر الأعمال بطولية، وأشدها نبلاً.

إنّني لأنحني احتراماً وتقديراً، لأولئك [الأبطال] الذين استسلموا للموت، دون أن ينشغلوا بالرّد، انتقاماً لأنفسهم. لهذا

أردتُ إبـراز هـذه الطيبوبة العاليـة، التي يتصف بهـا الإنسان، من خـلال شخصيـات بسيطة كشخصيـة هورتينسيا بـاز Hortensia Paz، أو الرقيـب سـوزا le sergent Soza. إن الكائـن الإنساني، مثلمـا سبق لي أن أثبـتُّ ذلك، لا يستطيع البقـاء على قيد الحياة، مـن دون الإيمان بدور الأبطال، ومن دون الاعتقاد في القديسين، والشهـداء، لأن الحـب مثله دوماً، مثل أي فعل مـن أفعال الخلق الحقيقية، هو انتصار على الشرّ.

***

الهوامش:

1) لابلاتـا La Plata مدينـة بضواحـي بوينـس إيريـس، بُنيتْ سنة 1886، تقـع علـى بُعد ستين كيلومتـراً من العاصمـة، وبالضبط في الجهة الجنوبية الشرقية منها (المترجم).

2) الغثيان La Nausée رواية لجان بول سارتر، نشرها سنة 1938، وحصل بها على شهرة أدبية كبيرة (المترجم).

3) توماس هوبس Hobbes فيلسوف إنجليزي عاش ما بين القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي (1679/1588). كان ولا يزال لمؤلفه الشهير: «ليتفيتان» تأثير واسع النطاق، في الفكر التنظيري السياسي الحديث والمعاصر (المترجم).

4) هذه الفقرة السردية، وجميع الفقرات الأخرى المجهولة الإحالة، التي سنجدها فيما بعد أمامنا، هي فقرات سردية مقتبسة من روايات إرنستو ساباتو. أما برينو، الذي سيشير إليه الكاتب فيما بعد، وبعده بكثير هورتينسيا، والرقيب سوزا، كل هؤلاء شخصيات تنتمي لنفس الروايات (إشارة صادرة عن مترجم النص الفرنسي).

5) المذهب المانوي manichéisme هو ذلك المذهب الذي تأسس على خلفية التعاليم الدينية، التي قال بها ماني Manés وقد

أشـار ماني إلى أن هناك مبدأين رئيسيين في الحياة، يعود إليهما مآل فعلنـا وسلوكنا، هما: مبدأ الخير، ومبدأ الشرّ. ومن ثمة، يتم التمييز بيـن جميع الأشياء والأفعال في الحياة، تمييزاً ثنائياً قائماً على خلفية الخيـر والشـر، الصالـح والقبيـح، الطيـب والخبيـث،،، إلـخ (المترجم).

6) تعـدّ إلهـات الفـوري الهائجـات Les Furies، فـي الأسطورة اللاتينيـة، رمزاً للبطش الإلهي الساحق، الذي لا يبقي ولا يذر. ومن الممكـن أن نقرن بيـن هذه الإلهـات، ومخلوقات قاسيـة أخرى، وردتْ في الأسطورة اليونانية: الإرينييسيات، وكذلك الأمينودات، Euménides أو المتسامحـات les Bienveillantes. ويقع عادة وصف أولئك بكلبات هاديس (Hadès إله الجحيم). ومن مهماتها معاقبة قاتل أحد الأبويـن، والشاهد بالزور، والحانث باليمين. وقد كان عددهـا فـي الأصل غيـر مضبـوط، إلا أن الأسطـورة اليونانية احتفظـت بثـلاث إلهـات، منهـا تيزيفـون Tisiphone، وميجير Mégère، ثم أليكتو Alecto.

وتذكر الأسطورة أن هذه الإلهات تظهر، كلما وقعت هناك جريمة، في كنف عائلة ما، خاصة حينما يقتل الابن أحد الأبوين. لا يستطيع القاتل بالمـرة، أن يفلت من قبضتهن. إنهن يتابعن مهمة الانتقام من الجنـاة، والعصـاة، والحانثيـن، حتـى ولو كان هؤلاء فـي الجحيم (المترجم).

***

الرسالة الرابعة:

قيم الجماعة

أريدُ أنْ أحدّثكمْ عن بوينس إيريس، حتى ولوْ لمْ أعدْ أسكنُ بين ظهرانيْها، وما عدتُ أطيقها. إلاّ أنها مع ذلك مدينتي، ومن ثمّ فإني ملزمٌ بتحمّل وزْرِها. فهي تمثّلُ عندي – بكيفية من الكيفيات – النموذجَ الوجودي paradigme de l'existence، الذي ينتهجه الناسُ في العواصم الكبرى، حيث ملايينُ السّكان يحيون، أو بالأحرى يتشبثون بمواصلة البقاء

«كلُّ واحدٍ منّا مذنبٌ أمام الجميع، وجانٍ على الكلّ، ومدانٌ بكل شيء».
ف.دوستويفسكي

فقـط، على قيدِ الحياة. وفـي البداية، أودّ أن أقـومَ بمراجعة لتلك المعطيـات المرتبطة بحال العالم، وهي المعطيات المعروفة لدى الجميـع، آملاً أن نتمكّن وأنا أكرر ذلك الكلام – مثلما يتابع الماءُ تكـرار سِقاطِه قطرةً فأخرى، إلى أنْ ينتهـي بإبلاءِ الحجر الصلد، أو مثلمـا يضطر البعض إلى تكـرار القرع بإلحاح شديد، على دَفّةِ بوابـةٍ مُحكمـة الغلق، [إلى أن تنفتح] – آمـلاً أن نتمكّن إذن، في يـوم من الأيام، من رؤية الأمور التي تعوّدنا على رؤيتها، مثلما هي فـي العادة، تأتينا مخالفةً لمجراها المعتاد. [ومن يدري؟]، فلربما تكـون الظاهرة قد شرعت سلفاً، فـي التّغيّر من تلقاء نفسها، ذلك أن الضـوءَ مـا انفـكّ يمـرق، مـن بيـن فجـوات هـذه الحضارة العجوز!

إنّنـا لنشهد اليوم، على الاندحار التّام والكلّي، للثقافة الغربية. فقـد أخـذ العالمُ يتفتّتُ، وصار يُهدّد بالسقـوط؛ هذا العالم الذي هـو، زيادةً في القَدَر السّاخر، حصيلـةُ إرادةِ الإنسان، ومحاولاتِه البروميثيوسية في إظهار السيادة والتفوق.

إنّ الحـروب – التي تضيـف إلى تركيبتهـا الوحشيةِ الدائمة، عناصـرَ المَكْننَـة اللا إنسانيـة، وزبانيةَ الديكتاتوريـاتِ المطلقة، ووضعيـةَ استـلاب الإنسـان، وواقـع التخريب الكارثـي للبيئة،

والعُصـابَ الجَمْعي، والهستيريا العامـة – قد فَتّحَتْ أعْيُنَنا أخيراً، علـى ذلـك الوحش الـذي أنشأنـاه، وحدبْنـا علـى رعايته بزهو وخيلاء.

إنّ العِلـم، هـذا الوليدَ الذائعَ الصّيت، الذي كان ينبغي عليه أن يُساهـم بهمة، في حَلّ كافة المشـكلات الفيزيقية والميتافيزيقية، التـي تحيّر الإنسانيـة وتشغلُ بالَها، قـد سَاهم كثيـراً – بفُطْرياته الذّريـة، وسُحُبـه الجهنميـة – فـي تيسيـر بنـاء الإمبراطوريـات العظمى، وتقويةِ سُلط التدمير، والتّخريب، والإبادة.

فمـنْ ساعة لأخـرى، تتجمّع السلطـةُ أكثر فأكثـر [في مركز واحـد]، وتتّسِـع لتمْتدّ عَبر الكوكب الأرضـيّ كلّه. ومثل حيوان وحشـيّ مُسْتبـد، تُحْكِـمُ عشـرون أو ثلاثـون شركـة، قبضتهـا المسيطـرة على العالم برمتـه. إن قاراتٍ بأكملها لا تزال تغرق في البؤسـ الشامـل، في حين صـارتْ التكنولوجيا تحتـلّ الصدارة. وفي الوقت الذي غدا فيه البعضُ، يحظى بمُعدّلات حياةٍ مدهشة، لا يـزال ملايينُ الناس محرومين من الشغل، والمـأوى، والرعايةِ الطبيـة، والتعليم. إنّ ثقافةَ التحشيد الجماهيري المُنَمّطة للناس la culture de masse، قـد عاثتْ في المُـدُنَ فساداً، حتى صار من العسير علـى المرء، إيجادُ قسطٍ أدنى مـن الأصالة والخصوصية،

لـدى كل واحد من ساكنة المدن؛ ولم تتوقف سيرورة هذه الثقافة الحاشـدة للجماهير عنـد حدود المدينة وحسـب، وإنّما أخذتْ تمتـدّ لتطال النواحي المجاورة، والقـرى القصية كذلك؛ وهو ما نسميـه عولمة. ألا ما أبشعها مـن فظاعة! أفلا نُدرك إذنْ، بأنّ فقْدَ الإنسـان لخصوصيته، سرعان ما يهيئه لعمليـة إعادة الإنتاج، عن طريـق الاستنساخ؟ إنّ الناس ما عادتْ – البتة – تتجرّأ على اتخاذ القـرارات، التي من شأنهـا أن تجعلَ الحياةَ أكثـرَ إنسانية، مخافةَ فقدِ أعمالهـا والتعرّض للتسريح، فتلتحقَ بـآلاف المنخرطين في رحلـة البحـث المسعـورة عن شغـلٍ، ينقذ وجودهـم، ويجنّبهم عثـرات البؤس. إنّ اللامساواة الجذرية، إزاء الاستفادة من مجمل الثـروات التي ينتجها مجتمـع الاستهلاك، قـد تسبّبتْ في سحق الطبقـة الوسطى، وبالتالي غـدتْ معاناةُ ملايـين الناس المهددين بالبؤس، معروضـةً باستمرار أمـامَ أنظار الجميـع، بكيفية عنيفة للغايـة، حتـى إننـا لنضطـر بطواعية منّـا، إلى التغاضـي عن هذه الحقيقـة. وعمّا قريب، سوف لن نجد – البتة – في قرارة أنفسنا، ولـو شيئاً بسيطاً يُقوّي رغبتنا في التعاطـي للدراسة أو الموسيقى، لأن الأسئلـة التي سـوف تفرضها الحياة على قِيَمنـا العليا، وعلى معنى المسؤولية الإنسانية لدينا، ستكون أسئلة مفرطة الضغط.

إنّ الأزمـةَ الرّاهنـة ليسـت أزمةَ نظـامٍ رأسمالـي، مثلما يتهيأ للكثيرين. إنها بالأحرى عمليةُ إخضاع واحدٍ من تصورات العالم والحيـاة، المتأسِّسِ علـى خلفيـة تأليـه التقنية، وعلـى استغلال الإنسـان، للبحـث والتمحيص. إذ للحصول علـى الثروة، كانت جميـع الوسائل فـي ما مضى، مبـرّرةً ومشروعة. ومـا كان ذلك البحـث عن الثـروة مسكوناً البتـة، برغبة فـي أن يستفيد منه كلّ الناس، ولا جميعُ البلدان، والشعوب؛ وإنما تمَّ ذلك دونما مراعاة للتاريـخ، ودونمـا احتـرام للأرضـ. لا، [لـم يتـم ذلـك لفائدة الجميـع]، وإنما كانـت عمليات البحث عن الثـروة، تشبه – مع الأسـف – تلـك الفوضى العارمة، التي تعقـب حدوث زلزالٍ من الـزلازل، حيث ترى كل فـرد ينجو بشيء ما، لنفسه وحسب. إنه لمـن العيـب أن تكون المجتمعـات الراهنة، قـد حقّقتْ تطورها بهـدف الغزو وحده، حيـث ظل عندها امتلاك القـوة، يعني حقَّ بسـط اليد على الثروات، وحيث امتدّ ذلك الاستغلال ليطال كافة مناطق العالم الممكنة.

يُقـرّ الاقتصاد السائد اليوم، بـأنّ ارتفاع عدد ساكنة العالم، لا يمكـن للمجتمعات الحالية أنْ تتحمّله. إنّ هذه الجملة لتزرع في بدني قشعريرةً مستحكمة: وكأنما ذلك الاقتصاد كافٍ فقط، كي

تبـرّر قوى الشرّ عملياتهـا الحربية. لقد حظيـتِ الحروب دوماً، بتأييـد واسع من قِبَل الشعوب، التي تستفيد منها. ومن ثمة، ينبغي علـى كل إنسان أنْ يلزم نفسه بالحرص – كجندي متربّص بالعدو – حتـى لا يقـع تكرار هذا، فيما بعـد. إنّ عبـارة: «ألاَ فَلْتَنْجُ كلُّ نفـس بنفسهـا»، ليستْ أمراً غير أخلاقي وحسـب، وإنما لم يعد لها اليوم، أي معنى.

إنّ كافـةَ المعتقـدات، وعمليـات التأمّـل، والمـوارد، والمخترعات، كانت قد وُضِعتْ في خدمة الغزو. ومن ثمة، أتتْ الـدولُ المستعمِـرةُ، والإمبراطوريـات العظمـى الغازيـة، بكافة أنواعهـا وأشكالهـا، أثناء مجريـات الصراع الدامـي، على مَحق التقاليـد والعـادات الأصلية، وتدنيس قِيَم عمّـرَتْ آلاف السنين، معتبِرةً أنّ الطبيعةَ ورغبات الإنسان، فيما بعد، مجردَ أشياء.

وإنّ التغييـر مـع ذلك، لا يعلـن عن نفسـه – وبكيفية ملغزة، أيضـاً – إلا بيـن ثنايا الرغبـة. إنني لأحس بذلـك، أثناء احتكاكي بالناس، الذيـن يتحدثون إليَّ فـي الأزقة، كما أننـي أشعر به لدى شبيبـة العالم قاطبة. غير أن الرغبة فـي حمايةِ الحياة، لا تكمن إلا في المرأة وحدها، وذلك بشكل مطلق للغاية.

إن اندحـار قَدْر المحاكـم، وانحطاط قيمتهـا، وإيمانَ الناس

بعـدم إمكانيـة قيام حكـم عادل، كل ذلـك يعطي الانطبـاعَ بأن الديمقراطيـة نظـامٌ عاجـزٌ عـن الكشف علـى المذنبيـن، وعلى معاقبتهم؛ وبأنها ليست سوى مجرد مجال ملائم لإشاعة الرشوة، وحسـب. والحقُّ أن الإنسان لا يكون بمقدوره، في ظلّ أي نظام آخـر كيفمـا كان نوعـه، أن يصـدع بالتنديد ضد هـذه الأعمال الارتشائيـة، ما عدا ضمن هذا النظـام الديمقراطي، بالذات. ليس لأنّ الرشـوة منعدمة في الأنظمة الأخـرى غير الديمقراطية، وإنما لأنهـا على العكس مـن ذلك، هناك، سرعان ما تغدو أكثرَ احتداداً وإذلالاً، مما هي عليه الحال في المجتمعات الديمقراطية، خاصة حيـن نُصدّق مـا أُثِرَ عن اللورد أكتـون Lord Acton[1]، من قولٍ مشهـور قال فيـه: «إن السلطة عادة مـا تُرشي، وتُفسـد، غير أن السلطة الكليانية بالذات، ترشي وتفسد بكيفية مطلقة».

ينبغـي لنا أن نُطالـب الحكومات ببذل قُصارى ما في وسعها، كـي تركّز السلطـةُ توجّهاتِها صوب قيمـة التكافل، وكي تُحرّضَ علـى حرية الفعل، وتحفّز عليها، واضعةً نفسها في خدمة الصالح العـام، الذي ليس هو بالمطلق، حصيلةٌ لأنـواتٍ فردية، وإنما هو المصلحـة العليا للأمة. كما ينبغي علينـا أنْ نؤسّس، بكل ما أوتينا مـن قـوة وطاقـة، نمـطَ حيـاةٍ وتفكيـرٍ مشتـركاً، يحتـرم كافـة

الاختلافـات، حتـى الأشـد جذريـة منهـا. فالديمقراطيـة مثلما أوضحـتْ ذلك ماريـا زامبرانـو Maria Zambrano[2]– بكيفية بالغـة الروعـة – ليسـت هـي نظـامَ ذلـك المجتمع، الـذي من المحتمـل أن يكـون فيه المـرء شخصاً كامـلَ الكينونة وحسب، وإنمـا هي ذلك النظام المجتمعي، الذي مـن الضروري جداً، أنْ يكـون فيـه المـرء كذلك. وعلـى الرغـم مـن أن الديمقراطية قد أضحـت اليـوم، أكثر عرضة للعطب والزلـل، فإنها تتميز عن بقية الأنظمـة الأخرى، لأن أي نظام سياسي آخـر لم يتجرأ، على منح الإنسان المزيدَ من العدالة الاجتماعية والحرية، أكثر مما فعل هذا النظام الديمقراطي المؤقت، الذي نعيش اليوم في ظله. إن الحكم الديمقراطـي لا ينبغي أن يسمـح بالتعددية فحسب، وإنما عليه أن يُشجّع عليها، وأن يُطالب بممارستها، لأن ذلك الحكم في حاجة إلـى الحضور الحيوي لكافة المواطنين، حتى يتسنّى له أن يكون، وأن يوجد. وكلما انعـدم ذلك الحضور الحيوي، سقط المجتمع في كونـه مجرد كيان لحشد الجماهير ضمـن نمط واحد، فيولّدَ لدى هـؤلاء – بسبب ذلك، بالضبط – سلـوكَ اللامبالاة، والميلَ نحـو الامتثال، والخنوع. ومن هنـا ينشأ ذلك التحجّر والجمود، اللذان تشكو منهما العديدُ من الديمقراطيات.

لا يمكنُنا أنْ نُماثل بكل بساطة، بين الديمقراطية والحرية. ذلك أن الذين لا يكفّون عن البحث عن الحرية كثيرون، كما أن الذين يَشُكّون فيها، هم كذلك وبالمثل كثيرون. وإذا ما قارنّا بين حالها اليوم، وبين ما كانت عليه في العقود المنصرمة، فإننا سنلاحظ بأن الحرية، قد صارتْ تعرف مع الأسف الشديد، حالة من التراجع ذريعة. فقد حُكِم على ملايين الناس في العالم، وفي البلدان الأكثر ثراء ذاتها، بالاشتغال ما بين عشر ساعاتٍ، واثنتي عشرةَ ساعةً في اليوم، والعيشِ بكيفية مكدّسة يزدحم بعضهم فيها، مع البعض الآخر بشكل بئيس، حتى إن حياتهم ما عادتْ أبداً، أفضل حالاً من وضعية القِننة، الذين كانوا يعيشون ضمن نطاقِ النظام الفيودالي، مُقيّدين بالأغلال إلى القَيْن. ومن ثمة، ينبغي على هذه الملاحظة البسيطة، أن تقود كلّ مَنْ استطاع العيش، وهو ينعم بأكبر قسط من الحرية، إلى إظهار المزيد من الانضباط والمسؤولية، لأن الحرية مثلما قال ألبير كامي، ليست امتيازاً، بقدر ما هي – بالتحديد – مسؤوليةٌ وانضباط.

تفرض علينا مهمتنا الشبيهة بمهمة إنسانٍ حُرّ في معتقل المحتجزين، أن نعملَ ما في وسعنا لفائدة هؤلاء المعتقلين التعساء، وبكافة الوسائل المتاحة لنا. «إنّ الحرية الحقة لن تُتاح

لنـا قطعـاً، ببلـوغ هـذا أو ذاك إلى سُـدّة السلطة، وإنّمـا بمقدار السلطـة التـي سـوف نملكها – نحـن جميعاً – في هـذا اليوم أو ذاك، من خـلال التصدّي لشطط الحاكمين، فـي استعمالهم لها. إن الحريـة مـن دون شـك، سـوف تولـد يـومَ سنكون قـد بلّغنا الجماهيـرَ، قناعةً مؤداها أنّ بإمكانهم أن يراقبوا ممارسة السلطة، وأن يفرضـوا علـى ممارسيهـا، احترامَهم». هكذا قـال غاندي، ذلـك الرجلُ الذي قـاوم إلى أن وافته المنية، مـن أجل أن تحصل بـلاده، ذات التاريخ الحضاري العريق، علـى نصيبها من الحرية. لقـد كان ذلك الرجل مقتنعاً بأن الإنسـان، لن ينال حريته في هذا العالـم أبداً، إلا حيـن يستطيع أن يقهر حريتَه الداخلية، وأن يتغلب عليها.

إنّ هـذا لواجـبٌ نضالـيٌّ كبيـر، مسؤوليتُه مُلقـاةٌ اليومَ، على كاهـل هؤلاء الرجال والنساء الذيـن يشتغلون، إما في هيئة الإذاعة والتلفزيـون، أو يكتبون في الجرائـد والصحف السيارة؛ إنه لفعلٌ بطولـيٌّ حقيقي، لـو أنّ مشاعر الرحمة والشفقـة، التي نحسّ بها إزاء معاناة وآلام الآخرين، تتحوّل إلى مشاعرَ – حقاً – أصيلة.

إننـي غالبـاً ما ألاحـظ أن جميعَ الأشياء قد صـارتْ مطروحة للنقاش، وأن آخر وافـدٍ قَطّر به السّقْف، غـدا بمقدوره أن يبدي

رأيـه بنفـس القدْر، الـذي يملكه كلُّ مَـنْ له تجربـةٌ مشهودٌ لها، بشـكل واسع. بل من الممكن أن يصير رأي ذلك الوافد الجديد، معتمـداً كمرجع حتى ولـوْ لم يكن مبرهناً عليـه. فليس ما يُسمى بالـرأي العام، سوى حصيلة مـا يَعْبُر رأسَ هـؤلاء وأولئك، الذين يتواجـدون بالصدفـة، فـي اللحظـة والمـكان المناسبين، حيث تُجرَى عمليـة الاستقصاء المصغّرة للرأي، وهـو ذلك الاستقصاء الـذي مهما كان تافهـاً، فإنه سيظهر مع ذلك، بالبنط العريض على صفحـات الجرائـد الأولـى، أو سيتصـدّر الموقـع الأول، فـي النشـرات الإخباريـة التلفزيونية. إن الأسئلة التـي تُطرح عادة في استقصـاءات الرأي، هي في الغالب أسئلة بليدة، حتى إنها لتَشْتاط علـى سقراط، ذلـك الفيلسوف الذي كانت الأسئلـة لديه، مفيدة جداً لتوليد الفكر مـن العقول. ففي استقصاءات الرأي الإعلامية، كل شيء مباح، وجميع وجهات النظر صالحة، وتتطلب أنْ يدافع عنهـا، سواء أكانت وجهة النظر هذه، لفـلان الفلاني أو لنابليون، للمسيـح أو لعلان المتميّز بالألمعية، وحِـدّة الذكاء. لا تفكير في المستقبل هنا، وإنما كل شيء متروك للصدفة.

ومـن بيـن التبعات الناجمـة عن هـذا الوضع، تلـك الأهمية المفرطة التـي يحتلّها الترفيه، [في وسائـل الإعلام]. لقد صارتْ

برامـجُ «التسليـة» تحظـى بنسبةٍ متابعـةٍ مُهمّة، بحيـث لا قياس يُحتَكـم له، فوق عيار نسبة المتابعة، حتـى ولو تعلّق الأمر بمعيار القيـم الجوهرية المُمَرّرة؛ ومن ثمة، تصبح معرفة الجهة المموّلة، التـي تقف خلف هـذا البرنامج أو ذاك، مسألـةً عديمةَ الجدوى، كمـا يصبـح من غير المفيد في شيء كذلـك، أن يدركَ مَن يدرك، بـأن تلـك البرامج المسلية هي إما منحطـةٌ، أو أنها تُتَفّه كلَّ شيء، وتجعلـه مبتذلاً، ما دامت تحظـى بنسبةٍ متابعة عليا. ربما قد يقال بأنّنـا افتقدنا كل قدرة على السمـو والرفعة، فصرنا نكتفي بمجرد كوميديـا من النوع الـرديء. إن هذا الوضع البئيـس، المُنْشَدّ إلى برامـج التسليـة المجانية، كيفمـا اتُّفِق، هو وضـع يصطبغ بألوان الانحطاط الفاقعة.

إن أولئـك الذيـن يشتركون فـي هذا الموقـف، يُعبّرون بتلك الكيفيـة عن موقف، هو حقاً موقف ارتيابـيّ، يستفاد منه بأن كل انشغـال بالمستقبل هو أمرٌ غيرُ مُجد، لأن أصحابه لا يؤمنون بأي فتْـح، من شأنـه أن يساهم في تحسينٍ طبيعة الحيـاة. وإذا ما كان ثمـةً من شيء رهيـب حقاً، فإنه كيفية العيش هـذه، تحديداً، التي دأب عليهـا الناسُ في حياتهم، [غير مكترثيـن لأي شيء يذكر]، وكأنمـا فَقَد العالمُ كلّ أفق، من شأنه أن يفضي به إلى مستقبل آخر

ممكـن، ومـن ثم ما عـاد في حوزتهـم، سوى التكتّـم على هذه التراجيدية، [ببرامج الترفيه والتسلية].

لقد اختارتْ حضارتنا نمطاً محدداً من الرفاهية، كنموذج لما «ينبغـي أن تكـون عليه» الحيـاة، لا خلاص خـارج دائرته. وقد تحقّق لها هذا الهدف، بفعل الخوف والعجز اللذين سكنا دواخل الناس، اليوم، من الاضطرار إلى مواجهة لحظات الحياة العسيرة، بما فيها تلـك الوضعيات القصوى، ومن ضـرورة مواجهة بعض الحواجـز والعقبات. كما تحقـق لحضارتنا ذلك الهـدف أيضاً، بفضل رهبة هؤلاء الناس، من الوقوع في مطبّ الفشل. إننا لنتستّر عـن أدنى خسارة ممكنة، بالانخراط في البحث عن الرفاهية، لأن الخوف الأكبر الذي يسكن بين ضلوعنا، هو الخوف من التعرض للإقصاء، والإبعـاد من هذا النمط المعيشي، كخوف أي فريق من كـرة القدم، من التعرض لتجربة الإقصاء مـن إقصائيات البطولة. هـذا مـا يشبه بالضبـط، تلـك الصعوبة التـي يشعر بهـا الإنسان المعاصر، إزاء مواجهة أعاصير الحياة، وأمام ما يقتضيه الأمر، من عمليات النهوض التي تعقب كل سقطة.

«بالمئات، ظلوا يخرجون من المترو، ويتعثرون، وينزلون من الحافـلات العمومية المكتظة، ويهبطون إلى جحيم محطة ريتيرو

Retiro، حيـث يتكدسـون من جديـد، في القطـارات... «سنة جديـدة، حياة جديدة»، ظل مارسيلو يردد في دخيلاء نفسه بورع ساخر، بينمـا كان يتأمل أحوال هؤلاء التعساء، الذين انخرطوا في رحلاتهـم، بحثاً عن أمـل من قبيل تلك الآمال، التـي توفّرها لهم الحلويات، وخمرة السِّيدْر، والصّافِرات، والصّخَب».

توصّلتُ يوم أمس، برسالة من طفل كتب يقول لي فيها: «إني خائـف من هـذا العالم». وفي نفـس المظروف، بعـث لي ذلك الطفـل بصورتـه الفوتوغرافيـة، التـي استطعتُ أنْ أحـزر فيها – بالتركيز على نظراته، وهيئة كتفيه المقوسين – شيئاً خاصاً، يوحي بنـوع من التفـاوت الكبير بيـن وضعه المادي، وبيـن هذا الواقع المرعـب، الـذي يجعله يرتعش من شدة الخـوف. لقد كان ثمة، دومـاً، أغنياءُ وفقراء، ومراقصُ راقيـةٌ وزنازينُ الحبس الانفرادي، ومَـن يموت من شدة الجوع، ومَن تتوفّر له موائد، تحتفي بجميع الأطبـاق الشهيـة. غير أن القرن العشرين ما فتـئ ينشر بين الناس، نزعـة العدمية nihilisme[3]، بكيفية صارت معها عملية نقل القيم الإنسانية النبيلة إلى الأجيال الجديدة، عمليةً مستحيلة.

ربمـا سيكون الشبـاب، على كل حال، هم مَـن سيساهم في إنقاذنا. والسبب في ذلك، هو أنه كيف سيتسنّى لنا أن نربي هؤلاء

على القيـم المثالية الكبرى، التي تُعطي للحيـاة معنى حقيقياً، في حيـن أنهم يظلون يشاهـدون بأم أعينهم، كيـف يتلاشى مليارات الرجـال والنساء، دون سند ولا مأوى، أو كيف تُغرِق الفيضانات، التي كان من الممكن تجنبها، ساكنةً بأكملها؟

فهـل يا ترى، يُتخَيّل للبعض أنْ سيكون بالمستطاع الاستمرار فـي تقديم المزيد من الكـوارث العظمى، التي يغـرق فيها أشقياء العالـم، على شاشات التلفزيـون، جنباً إلى جنب مـع ذلك النَّزَق البرْمجـي المتباهى به، والفاسد، مرفقاً بسقَط البرامج الأشدّ مقتاً، لتكـون الحصيلة عندنا – ضمن هذه الشروط – أطفالاً سيصيرون فـي المستقبل، كائناتٍ إنسانيةً جديـرةً بهذه الصفة؟ إن غياب ردّ الفعـل الإنساني، يولّد عنفاً لا يمكن لنا أن نقاومه بالسلاح، وإنما العاطفـةُ الأخويـة البحتـة، التـي تربط بيـن الناس، هـي الكفيلة بالتصدي له.

يفْني ملايينُ الناس، متى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، أنفسَهم في الشّغْـل، معمّقين مشاعرَ المرارة وانجلاء الأوهام لديهم، فقط كـي يبقـوا بالكاد، صامدين على قيد الحيـاة، في وضعية مؤقتة لا يطبعهـا أي تطلّع يذكر صوب المستقبل، في حين أنه ما وُجد ثمة قط، إنْ صحّ القول، أيّ شخص ممن مارس الحكم، لم يُغيّر شقّتَه

المتواضعة بسكن باذخ، يتميّز ببوابة كبيرة تسمح بعبور السيارات الفارهة، في مجرد أشهر معدودة. ترى، كيف لا يخجل أمثال هؤلاء، من أنفسهم؟!

إننا إنْ بقينا مكتوفي الأيدي، فإننا سنكون متواطئين مع هذا النظام، الذي شرّع لموت الناس في صمت. إن هؤلاء لفي حاجة ماسةً، لأن ينضاف صوتُنا لتلك المطالب المشروعة، التي ما انفكوا يرفعونها. إنني أكره ذلك الخنوعَ، الذي يصدع به بوقاحة، كلّ هؤلاء الممتثلين والرّاضخين، حين لا يكونون – لا هُمْ، ولا عائلاتهم – مَن يُضَحّي بنفسه. ولشدّ ما تروّعَتُ نفسي، حين تصوّرتُ أنه من المحتمل أن تصبح الرشوةُ، ومعها الانفلاتُ من العقاب – كما كانت تلك الجائحات، التي انتشرت بين الناس، في القرون الماضية – مجرد أمرين مفروضين على جميع المجتمعات، ومن ثمة يغدوان وكأنهما جزء من هذا الواقع، الذي علينا أن نتعوّد عليه، فقط. فكيف يا ترى، انتهت حياتنا الاجتماعية، إلى كل هذا الانحطاط الشامل، في القيم؟ لقد تعلّمنا في فترة الشباب، أن نتصرف كأفراد اجتماعيين، بالسّيْر على هدى النموذج الذي سار عليه أسلافنا، الذين ظلوا منضبطين في أدائهم للواجب – وهي الكلمة، التي عفا عليها الدهر، اليوم –

آملين فـي الحصول على مكافأة جديرة بعملهم، وما كانوا ليقبلوا بالارتشـاء، أبداً. لقد كان هؤلاء ناسـاً جديرين بالاحترام: فهُمْ لم يكونـوا ليسمحوا لأنفسهم بمَدّ اليد إلـى شيء لم يكن لهم، أبداً، ولا أن يقبلوا بالرشى، أو ما شابه ذلك، مطلقاً.

وفـي هـذا المقام، أذكر كيـف خسر والـدي طاحونته، لعدم الوفاء بدين، كان قد حصل عليه فقط، بناء على تعاقد شفوي مبني علـى الثقة. لقد كانت خسارة والـدي مؤلمة جداً، بالطبع، إلا أنه لـو لـم يوف بوعـده، ولو لم يقدمْ علـى ما أقدم عليـه، لما أصبح جديـراً بالثقة، وهو الأمر الذي منحـه القوة على تحمّل خسارته، ومكّنه من العيش في وئام وسلام، بينه وبين نفسه. وامتداداً لذات الموضـوع، أسجّـل بفخر واعتـزاز، ما كان يطبـع العمل النقابي قديمـاً، من إخلاص كبير للقيـم. وفي هذا الإطار، عادة ما أستعيد بطهرانيـة بريئـة تقريباً، حكايةَ ذلك الرجل الـذي أصيب في أحد الأزقـة، بحالـة إغمـاء. وحين عاد إلـى وعيه، وسُئـل عن السبب الـذي منعه من شراء ما يُقوّي بـه نفسَه من طعام، خاصةً أن النقود كانت موجودة بجيبه، لحظة أغمي عليه، بادر إلى القول بأن تلك ليست نقوده، وإنما هي مال النقابة! ليس معنى هذا أني أدافع عن الماضـي، لأنه كان خالياً من كل آفات الارتشاء، ولكن لأن معنى

الشـرف ظل شيئـاً سائداً، ومعمّماً في تلـك الحقبة، وهو ما بات الناس يدافعون عنه بسلوكهم، وسِيَر حياتهم. أما الاغتراف من صناديق الأمة بطريقة غير مشروعة، تلك الصناديق التي تختزن أموالاً، ينبغي أن تُصرف في كل ما يتصل بالنفع العام، فقد كان ولا يزال على الدوام، واحداً من أخطر الجرائم، التي يمكن أن يقدم عليها المرء.

لا يمكن للمرء بالمرة، أن ينحني انحناءة تقدير واعتراف، لهؤلاء الذين يختلسون الأموال المخصصة للتعليم، ويسرقون صناديق التعاضديات، ويملأون جيوبهم بحصيلة الأموال المتبرّع بها، لفائدة الفقراء. ولا ينبغي لنا أن نكون كذلك، متواطئين في أعمال الرشوة، ولا استدعاء بعض مَن ساهم في الرفع من وتيرة المآسي، التي يرزح نظراؤه تحت طائلتها، ليحضر إلى التلفزيون، ويُتعامل معه أمام أنظار الأطفال، وكأنّه شريف. إن ذلك بالضبط، لمن أكبر الأعمال الأخلاقية المنحطة، التي لا تساهم سوى في جرح مشاعر الناس. إذ كيف سيكون بوسعنا، أن نساهم في الرفع من حال التربية، إلى ما هو أحسن، إذا كنّا ضمن وضعية الالتباس الراهنة، لا نعلم على الإطلاق، ما إذا كانت شهرةُ البعض ناجمة عن كونه بطلاً بحق وحقيقة، أو لكونه مجرد مجرم؟! سيقال

بأنـي لاشـك أبالغ، لكن ألا يُعـدّ نهب الملايين المخصصة لمن يعيشـ في البؤس يومياً، عملاً من أعمال النهـب والسرقة؟! لكم هي عديدة، تلك الفضائح التي كنّا شهوداً عليها، لكن ما من شيء تغير إطلاقاً، وما زُجّ بأيّ من هؤلاء اللصوص المستغلين لموقعهم داخـل جهـاز السلطة، إلـى السجـن. إن الناس لتعلـمُ بيقين، أن الجهـات الرسمية تكذب عليهـا؛ ومن ثم، ما عاد يبدو هنالك في الأفـق، بعد أن اتسعت دائـرة هذه الموجة المتأثـرة في سلوكها، بالنزعة الكلبيـة cynisme[4] المحتقرة للقيم والأعراف الأخلاقية العامـة، ما بمقدوره أن يوقف امتداد هـذه الموجة الجارفة؛ وهو الشـيء الـذي ما فتـئ يُوَلّد لـدى كل واحد من أفـراد المجتمع، شعوراً بالإحباط والعجز، اللذين يقودانه بدورهما إلى تبني سلوك العنف. فإلى أي حد سنظل نسير، على هذه الكيفية؟

لن يكون بمقدورنـا أن نحيا حياة جماعية مشتركة فيما بيننا، بكيفيـة أكبر، إنْ ظلتْ علاقاتُنا الاجتماعيـة، قائمة على التنافس. مـن المؤكـد أن هـذا المبدأ الأخيـر، غالباً مـا يساهم فـي إنتاج مردوديـة أفضل لدى البعض، غير أننـا لا ينبغي أن ننخدع بذلك، لأن المنافسـة ليست في النهاية، سـوى شكل من أشكال الصراع غيـر المسلح؛ ولأنهـا كذلك، فإنها تُبنَى – مثلهـا مثل أي صراع

مسلـح – على النزعة الفردانية، التي مـا تفتأ تفصلنا عن الآخرين، الذيـن ندخل معهم في صراع كاسر. فلو أنّنا امتلكنا حسّاً جماعياً أفضـل، لاتخذ التاريخ وكذلك معنى الحياة عندنا، شكلين آخرين مختلفيـن؛ ذلـك التاريخ، وتلـك الحياة، اللذان قـد نستلذ بهما، ربما.

عندمـا أنتقد النزعةَ التنافسية، فإننـي لا أفعل ذلك باسم واحد مـن المبادئ الأخلاقية وحسب، وإنما أفعل ذلـك أيضاً، بينما أنا أفكر في تلك المتعة الكبرى التي قد نشعر بها، لو أننا اشتركنا في نسج مصير واحد، وهو الأمر الذي من شأنه أن يجنبنا عقمَ النزعة المِهْنَوية، والبحث عن مجرد النجاح الفردي، تانك الآفتين اللتين تَنْكبّان اليوم، على حرمان الإنسان المعاصر من الحياة الحقة.

تبيّنَ لي بعد أن مضت أسابيعُ قليلة، على تاريخ توصلي برسالة ذلـك الطفل، وبعد أن جلست إلى مكتبي للردّ عليها ذات ظهيرة، بأنني كنتُ في فتـرة شبابي، أتعاطى الكتابة كلما شعرتُ بالحزن، وأحسسـت – فـي دواخلي – إما بمشاعر اليتـم، أو بعدم التلاؤم مـع هذا العالم، الذي كُتِب عليّ أن أعيشـ فيه. وإنّني لأتساءل إن لـم يكـن نشـوء الكتابة، عادة ما يتـم بهذه الكيفيـة، وإن لم تكن ولادة الفـن ذاته، عادة ما تنجم عن ذلـك الالتباس، الذي يدثرنا،

وعـن ذلك القلـق الوجودي العام، وعدم الرضـا، اللذين يسكنان أحشاءنـا. مثلمـا أتسـاءل كذلك، إن لـم تكن ردة الفعـل الأدبية والفنيـة تلك، ضرباً مـن تجديد المصالحة بيـن الكون من جهة، وهذه المخلوقات سهلة العطب، والقلقة، ونافدة الصبر، التي هي مـن جهة أخرى، الإنسـان. إن الحيوانات ليسـت في حاجة إلى فـنّ، وإنما كل مـا تحتاج إليه هو العيش علـى الضرورة الطبيعية، لأن وجودها يجري في تناغم مع احتياجاتها الضرورية الموروثة. يكفـي مثلاً، أن يتوفر للعصفور بعضُ الحَبِّ، أو بعضُ الدّوَيْدات، وأن يحظـى بشجرة في المحيط، الذي يتواجد فيه، يتّخذ من أحد أغصانهـا مقراً لبنـاء عشّه، وأن تتـاح له فضـاءات فسيحة ليحلق فيهـا، كي تجدَ – في الأخير – بأنّ حياته تسير، من لحظة الولادة إلـى لحظـة الممـات، على إيقـاع نشيـط ورشيـق، لا يتكسّر لا بالقنـوط الميتافيزيقي، ولا بالجنونً. في حيـن أن الإنسان – بعد أن استقـام واقفـاً علـى قائمتيـه الخلفيتيـن، واتخـذ مـن الحجر المسنـون أدوات قاطعـةً – لم يُلقِ بقواعد رِفعَتـه وحسب، وإنما كذلـك بقواعد خوفه؛ والسبب في ذلك أنـه أنشأ بيديه، وكذلك بالاستعانـة بما صنعه من أدوات، صـرحَ ذلك البناء الذي بقدر ما هـو صلـب للغاية، هـو كذلك في غايـة الغرابة، والـذي نسميه: ثقافـة؛ ومن ثمة، بـوأ تمزّقه الكبير عرشَ الوجـود كلّه: لقد كفّ

الإنسان بذلك الصنيع، عن أن يكون مجرد حيوان، إلا أنه لم ينجح بتاتاً، في أن يصير – كما حدس في قرارة نفسه – إلهاً. لقد غدا ذلك الكائن الموزع والشّقيّ، الذي يتحرّك ويعيش، بين أرض الحيوان وسماء الآلهة، والذي فقد فردوسَ براءته الأرضي، وما فاز – مع ذلك – بجَنّة الخلاص.

أمَا أسْديتُ النصحَ عدّةَ مرات، للذين ظلوا يختلفون إليّ، وهم في أوج الخوف والإحباط، حاثاً إياهم على ممارسة الفن، وترك ذواتهم تَحْملها تلك القوى الخفية الكامنة فينا، وتوجهها وجهةَ العمل الفني؟! إن كلَّ طفلٍ هو بالقوة فنان، لأنه يغني، ويرقص، ويرسم، ويقص الحكايات، ويبني قصوراً من الرمل، والحجارة. إن الفنانين العظام لكائناتٌ فريدة من نوعها، نجحتْ في أن تحتفظ بأعماق روحها، على تلك البراءة الطاهرة والمقدسة، التي يتصف بها عالم الأطفال، وعالم الكائنات الموسومة عادة بالبدائية، التي تستثير – بسبب وسْمها ذاك – الضحكَ لدى الأغبياء. إن كل إنسان يملك إلى حدّ ما، القدرةَ على الخلق والإبداع، ليس بالضرورة كممارسة راقية، أو حصرية. لكم هو رائع جداً، ذلك المثل الذي تقدمّه لنا الشعوبُ القديمة، في هذا الصدد، حيث كان يلتقي الجميع ليرقص،

ويغنـي، رغم الأحـزان وضيق ذات اليـد! إن الفن موهبـة لدُنية، تُعالج الروح من آثار الفشل، والخيبات، والإحباطات. إنه يمنحنا تلك القوة اللازمة لتحقيق اليوتوبيا، التي تهيئنا لها الأقدار.

يـروّج الفـنُّ المتعلق بكل مرحلة، رؤيةً مـا للعالم، وهي تلك الرؤية، وخاصة ذلك التصـوّر المتمثل للواقع، الذي يتبنّاه الناس، فـي لحظة تاريخيـة معينة. في هذه الألفيـة الجديدة، وعلى الرغم مـن وجود سوق عملاقـة لترويج فنون العولمـة، فإننا ما نلبث أن نجـد هنا وهنـاك، بعضَ العلامات الدالة علـى وجود نظرات فنية جديـدة، خاصة في الفـن السابع، تتفتق تفتّـق البراعم، بعد فصلِ شتـاءٍ طويـل. في هذه الأفلام ذات الميزانيـة المحدودة، التي تفد علينـا مـن بعض البلدان الصغيـرة، التي لم تمتـد إليها بعدُ عدوى العولمـة، عادة مـا يتم التعبير بتلقائية، عـن عملية بحث جادة عن عالـم إنساني، بقدر مـا هو مفتقد، بقدر ما نحن لم نزهد بعد فيه. إنها فصيلـةُ تلك الأفلام، التي تملؤنـا بالارتياح، وتزرع السلوى والعـزاء بدواخلنا، وهـي تُبيّن لنا بأن بعض أنمـاط العيش، الأكثر إنسانيـة من نمط حياتنا الحالي، لا تزال موجودة على قيد الحياة. ولهـذا، لا ينبغـي لنـا أن ننعـت الإنسـانَ بكونه مجرد آلـة لنشر الخراب، واليباب وحسب، وإنما هو كذلك كينونة مترعة بالرغبة

في الحياة؛ كما أنه ليس مجرد عزلة، وإنما هو اتحاد في المصير، وفي المحبة أيضاً.

«بنظرةِ معبودٍ صغير عاجز، كان يتأمّل التكتّلَ المضطربَ والهائل، الرقيقَ والقاسي، الكريهَ والمحبوب، الذي كان مِثْل وحشِ اللفياتان Léviathan المرعب، يرتسمُ على الجانب، في تضاد مع السحاب الثقيل، الآتي من جهة الغرب.

كانت الشمس تسافر نحو الغروب؛ ومن ثانية لأخرى، ظل السحاب يُغيّر من مُسْحته. وظلت بقايا السحب الهائلة، ذات اللون الرمادي المُشْرب ببعض الحمرة، تتمزق من تلقاء ذاتها، على خلفية سحاب بعيد جداً، يجمع بين مجموعة من الألوان، من بينها الرمادي، والليلكي، والأسود. «يا لخسارة ذلك اللون الوردي»، ردّد هو في قرارة نفسه، وكأنما كان يتواجد بين أرجاء قاعة للعرض. غير أن اللون الوردي ما لبث أن انتشر، مبدّداً كل ما كان حوله، وقد استمر ذلك وقتاً غير يسير، إلى أن بلغ تلك اللحظة، التي بدأ فيها بالانطفاء، عابراً لحظة تبدّله من اللّبَني، إلى لون ضارب في البنفسجي، ليتبدّى رمادياً، ثم أخيراً أسود، اللون المعلن عن الموت، التي هي دوماً، لحظةُ أبَهَة واحتفاء، سرعان ما تنتهي بمنح الكائنات كل ما ظلت تستحقه من عزة، وشرف.

ثم إذا بالشمس تختفي.

هـا هو ذا يوم آخر، مـن أيام بوينس إيريسـ، ينقضي؛ يوم من روزنامـة ذلك الزمن غير القابل للاستعـادة، والمفتقد مرة واحدة وإلـى الأبـد، والذي يدفع به دفعاً من الوراء، دون رأفة ولا رحمة، كـي يجعله يقترب أكثر، من حتفه الأخيـر. لكم غدا دفعُه سريعاً، وهـو يدفع بـه إلى النهايـة! من قبل، كانـت السنون تمـر بإيقا ع بطـيء، وظل الوقت يبـدو لناظريه، وهو ينظر إليه من جهة الأمام، وكأنمـا هـو درب، مـا تنفك معالمـه تتلاشى في الأفـق. غير أن السنوات في الوقت الحاضر، سرعان ما غدت تكِرّ بأقصى سرعة ممكنـة، في اتجـاه النهاية، وكان هو يسمـع نفسه في كل لحظة، إمـا يردّد: «مضت الآن عشـرون سنة، على المـرة الأخيرة، التي كنـت قد رأيتها فيها»، أو يردّد شيئاً ركيكاً ومأساوياً آخر، من هذا القبيـل. حينذاك، يدرك بغتة، كمشرف على هوة سحيقة، بأن كل مـا فضل لديه، ليشـدّ الرحال صوب العدم، ليـس سوى نزر قليل مـن الوقـت؛ أي أنه لـم يبق لـه بالتحديد، غير بعض الخطوات الشقية القليلة، التي عليه أن يقطعها. ترى، لأية غاية، سيخطوها؟

ومـا إن بلغ هـذا المبلغ المحتـد في الوعي، وبدا لـه بأن كل الأشيـاء عديمـة المعنى بشكل مطلـق، حتى عثـر بالصدفة، على

كلـب سائب من صنف تلك الكلاب المتعطشة للمسة يد بشرية، والتـي لهـا مصير أضأل من جسدها، ومن قلبهـا، إلا أنه ظل رغم كل ذلـك، كلبـاً قـادراً على الصمـود ببسالة بالغة، فـي وجه كل القـوى المهددة، وقـادراً على الدفاع عن حياتـه الوضيعة. التقط الكلـبَ، ودلّله، ثـم صنـع لـه – كيفما اتُّفـق – حُجـرةً صغيرة، وتَعهّـده بالطعام، وصار هـو بذلك معنَى الحيـوان المسكين في الوجـود، وهو مـا منح حياته هو بالذات أيضـاً، بتأثير عصي على كل فهـم، ومُتَحَـدٍّ لكل فلسفة، معنًى جديـداً؛ وهكذا صارا معاً، هـو والكلب، أشبـهَ بمخلوقين يائسين، سقطا فـي وهدة الوحدة الفظيعة، ما فتئا ينامان جنبا إلى جنب، كي يُدفئا بعضهما بعضاً».

***

الهوامش:

1) اللـورد أكتـون Lord Acton (1902/1834)، بارون بريطاني من أصول إيطالية ألمانية. هو مؤرخ ورجل سياسة، لعب دوراً مهماً فـي القرن التاسع عشر، في إطار النقاشات التي تخص دور الكنيسة الكاثوليكية في الحركة الليبرالية (المترجم).

2) ماريـا زامبرانـو M. Zambrano فيلسوفة إسبانية 1991/1904 (هامش الترجمة الفرنسية).

3) العدميـة le nihilisme لفظـة مشتقـة مـن كلمـة نيهيـل nihil اللاتينية، التي تعني: لا شيء، عدم. وقد استعملت لفظة nihilisme لأول مـرة، مـن طـرف الكاتـب الروسـي إيفـان تورجنيـف (1883/1818) في إشارة إلى انتقاد اجتماعي لأنتيليجنسيا متطرفة، فقـدت الأوهـام. والعدمية فلسفياً، هي نزعة شـك مطلقة، لا تؤمن بـأي قيمـة، ولا بـأي معتقـد. إنهـا لا تولـي أهميـة إلا «للعـدم»، و«الحطام»، و«الموت» (المترجم).

4) المذهـب الكلبـي cynisme موقـف استفـزازي، فيـه نوع من التحـدي للقيـم والمعتقدات الاجتماعيـة. والكلبية نزعـة تفلسفية قديمة، تتحدى المسبقات الأخلاقية، والأعراف الاجتماعية، باسم العودة إلى الطبيعة (المترجم).

***

www.booksall.net

الرسالة الخامسة:

الممــانعـــة

«إنهم أولئك المطرودون، والمنفيون، والمُحتَقرون، الذين حُرِموا من وطنهم، ومن قطعة أرضهم، أولئك الذين قُذف بهم، بطريقة وحشية، في حفرة بغور عميق. ها هو ذا المدى، الذي بلغه فرسان هذا الزمن، المتوّجون بأكاليل النصر».

إ. يونغر

إنّ التّعَجلَ لمنْ أسوأ الأمور.

العجلــةُ لا تُثمــر، ولا تُزهــر. إن أهــم مــا ينجُــم عنهــا هــو الخوف، بحيث إن الإنســانَ ما إنْ ينخرطَ في إيقاعهــا، حتى يكتســبَ سلوكَ الآلة الميكانيكيــة المتحركة automate، ومــن ثمة لا يغــدو مسؤولاً عــنْ أيّ شيء أبــداً، ولا حرّاً في أفعاله وحياته مطلقــاً، ولا قادراً علــى التّعرّف على الآخرين، بتاتاً.

إنّ روحي لتهتزّ، وترتجفُ، كلما رأيتُ البشرَ منساقين، يجرفُهم سباقهم المحموم، دون معرفة حقة بالوجهة، التي يسيرون في اتجاهها، وإنما تراهم مرتعَبين ومرَوّعين وحسب، وقد عدموا حتى التّعرّف على هوية اللّواء، الذي اقتيدوا للانضواء تحته، في معركة ليسوا هم مَن اختارها.

لقد تغيّرت الأجواء كثيراً، في بوينس إيريس. ففي الأزقة والدروب، عادة ما يُصادفك منظر الرجال والنساء، وهم يَحُثّون الخَطوَ، متقدّمين بسرعة إلى الأمام، من دون النظر حتى إلى بعضهم بعضاً، وإنما تراهم خاضعين وحسب، لضغط الوقت الذي صار يهدّد إنسانيتهم. فما عاد لهؤلاء مكانٌ يجلسون فيه للحظة من اللحظات، كي يتجاذبوا أطراف الحديث فيما بينهم، حول كأس من القهوة؛ وهي لعمري، تلك العادة القديمة التي ظلت تميز ساكنة هذه المدينة، قبل أن يمتد إليها التوحّش والعنف، ويحوّلانها إلى مجرد جسدٍ وحشيّ جبّار، عديم العقل؛ لمّا كان لا يزال لدى الأمهات، متسعٌ من الوقت لمرافقة أطفالهن، كي يستمتعوا باللعب بين أرجاء الساحات الكبرى، أو لزيارة أجدادهم. فهل بمقدور المرء أن ينبسط لهذه السرعة، وينشرح؟ يبدو بأن المردودية الإنتاجية هي واحدٌ من بين

الأهـداف، التي ظـل يرمي إلى تحقيقها، هـذا السباق المحموم. لكـن، هـل تُعـدّ المنتجـات، حتـى وإنْ تحصّلتْ بهـذه الكيفية المتعجّلة، غُنْماً حقيقياً؟

لا يستطيـع الإنسان أبداً، أن يُحافظ علـى خاصيته الإنسانية، ضمـن دائرة هذه السرعة المفرطة؛ وإذا ما حدث له أن استمرّ في العيش كالآلة الميكانيكيـة المتحرّكة، فإنه سوف يغدو لا محالة، أثـراً بعد عين. ذلك أنه بقدر ما أنّ الإنجابَ خاصيةٌ ملازمة لحياة الإنسـان، وبقـدر مـا أن دورة الفصـول خاصيةٌ ملازمـةٌ لتحوّل النبـات، فإنّ طمأنينة النفس، وبعضَ البُطء، هما كذلك وبالمثل، خاصيتان ملازمتان لطبيعة الحياة الإنسانية، بالضبط.

إننـا نخطو، غير أنّنا لا نتقـدّم. إنّنا لنتحرّك وحسب، من دون توقـف طبعـاً، بيـن أرجـاء عربة، مثلمـا لو كنّـا على متـن عبّارَة ضخمـة، أو على سطح مدينة كوكبيـة ville satillite، من فصيلة تلـك المـدن الكوكبية، التي وُعِدنـا بها. فما عاد ثمـة من شيء، يشتغـل بالتوافق مع الإيقاع الحقيقي للإنسـان. فمَن ما زال يسير منّا، بتُـؤدة ومهل؟ إن السبب في شيوع هذا الوضع، كون العجلة ما عـادت شيئاً خارجاً عن ذواتنا، وإنما صـارتْ تتمثّلها أذهاننا، حتـى ما عادتْ تتوقف عن بث الصور المتغيّـرة السريعة، وكأنما

هـي تنقر على جهاز الريموت كونتـرول؛ بل ربما امتدّت عدوى السرعـة، لتصيـب قلوبنا كذلك، هـذه المُضَغ الغيـرة من اللحم، التي انخرطـت تلقائياً في عملية إنفاق شحناتها، من خلال موالاة النبضـ بوتيرة مرتفعـة، كي تـؤول كل الأمور إلى نهايـة سريعة، وتصيـر الحيـاة جميعها فيما بعـد، مجرد نسـي منسي وحسب. فنحـن ما عدنا نعرف إطلاقـاً، كيف نقيم الصلوات بخشوع، لأنّا خسرنا في طريق تقدمنا السريع، خاصية الصمت والصراخ، معاً.

فـي زحمـة العجلة، يصيـر كلُّ شيء شديـدَ الفظاعـة بالنسبة للناسـ، حتى إن الكلام ما عاد عملـة، تُتَبادل فيما بينهم أبداً. وقد بلـغ بنا الأمر مبلغاً مهولاً، بحيث صرنا لا نعبّر سوى بلغة الأرقام، عوضـ لغة الكلام، ولا نتبـادل سوى المعلومـات العامة، عوض الخبـر عن الأحـوال. إن اختفاء الحوار في حياتنـا، عامل رئيسي في عملية خنق كل محاولة للتفاهم، من شأنها أن تنشأ بين الناس، وتسمـحَ لهـم بالانتصـار علـى المخـاوف، التـي تسكـن بيـن جوانحهـم، وبلـوغ أكبر قـدر ممكن مـن الحرية. غيـر أن أشدّ الأمـور خطورة، في هـذا المجتمع الموبوء، ليسـ هو الاستغلال والفقر وحدهما، وإنما هو البؤس الروحي المرافق لهما. ذلك أن أغلبيـة الناسـ لـم تعد ترغب فـي الاستـزادة من الحريـة بمقدار

إضافـي، لأن الحرية غدتْ تخيفها. ومن ثمة، غدا الخوف أعظم علامـة على انحطاطنـا. إن الأمر لكذلك بالفعل، إلى حدٍّ أنه صار بوسع المرء، الاكتفاء بالكشط قليلاً على قشرة المجتمع، ليكْشِفَ عـن ذلك الهلع الثاوي بين أعماق ساكنـة المدن الكبرى، التي ما عـادت تحيـا، إلا من أجـل أداء الواجب المهنـي، فحسب. وقد صـار هذا الواجب مكرهاً للغايـة، إلى درجة أن تقلّص معه وجود هـؤلاء الناس، وصار يتمثـل في مجرد كينونة لآليـات ميكانيكية متحركـة، لا يُفترض فيهـا أي تدبيـر أو تفكيـر، قبـل النهوض بمهامها العملية.

صـار الجـزء الأكبر مـن البشرية اليـوم، يعمل لفائـدة سلطة مجـردة. وهناك من فئة المستخدمين، مَـن يكْسِب أكثر، كما أن هنـاك مَـن لا يكسـب غيـر النـزر القليـل، إذا مـا قـورن وضعه بالآخرين. لكنْ، أين يكون اختفى ذلك الإنسان الحر، الذي كان قـادراً علـى الحسم، واتخاذ قرار نفسه بنفسـه؟ إنه لذلك السؤال جد الجوهري، الذي ينبغي علينا أن نستمرّ في طرحه على ذواتنا، إلـى أن نتَسَمّـع فـي قـرارة أنفسنـا، وفي دخيلـة أرواحنـا، نداءَ المسؤولية الذي يؤول أمره إلينا، في النهاية.

أعتقـد بأنـه ينبغي علينا أن نقاوم: لقـد كان ذلك على الدوام،

هــو شعاري. إلا أني غالبــاً ما صرت أتساءل اليوم، عن طبيعة تلك الكيفيــة العمليــة، التي يُمكــن أن يُترجم إليها هــذا الشعار. فحين كانــت الحياة في السابق أقلّ صعوبة، ما كان لهذا الشعار أن يعني عنــدي، إلا النهوض ببعض الأعمــال البطولية، مــن قبيل رفض الانحشــار بين عربــات هذا القطــار المسعور، الــذي يقودنا إلى محطات الجنون، والشقاء. لكنْ، هل بمقدور المرء أن يطلب من الناس، الذين وقعوا وسط الإعصار، أن يتمردوا؟! وهل بمقدوري أنــا، أن أطلب من رجال ونساء بلدي، رفض الانحشار في دينامية هــذا النظــام الرأسمالــي المتوحش، في حين أنهــم مضطرون إلى إعالــة أبنائهم، والإنفاق على ذويهم؟! ثم كيف سيكون بمستطاع هــؤلاء، إنْ كانوا يضطلعون بكل تلك المأموريات، أن يقطعوا مع نمط الحياة، الذي ظلوا يحيونه؟!

لقــد تغيــرت الأوضاعُ بكيفيــة جذرية، إلى حدّ أنــه صار ينبغي علينــا أن نعيــدَ، بتيقّظ وانتباه، تحديدَ ما نعنيــه بلفظ «المقاومة». أنا ليــس فــي وسعي، أن أعطي جواباً جاهزاً بهذا الصدد، إذ لو كان مثل ذلك الجواب بحوزتي، لفعلت ما يفعله المنادون بمشاريع الخلاص الربّانــي، ولقمــتُ بمــا يقوم به المتدينــون المصابــون بالتخريف – هــؤلاء الذيــن يعتقدون وحدهــم ربما، اعتقــاداً خالصاً، فــي مسألة

تقديـم الشهادة على عصرهم – ومـن ثمة، أمكنني الخروج للصدع بشهادتي، في زاوية من زقاق المدينة، مندفعا إلى تحقيق ذلك، بتلك الاندفاعـة السريعة والمتعجلة، التي يحفّزُنا عليها ما تبقى على وقوع الكارثـة، من أمتار قليلة. لكـن لا، ذلك أن ما أشعر بالرغبة في تبليغه إليكم، عبر هذه الرسالة، هو شيء أقل من هائل، وأكثر تواضعاً، وهو شبيـه بالاعتقاد في معجزة ما. شيء مناسـب لهذا الليل البهيم، الذي صرنـا نعْمَه فـي ظلمته، شيء ربما يكون أشبـه بضوء خافت، يصدر عن شمعة، نغذي بفضله بعضَ الأمل.

لقد قادت معضلاتُ الحياة العصرية، بما فيها مشكلة العطالة، والكثافـة المتزايدة للسـكان، الإنسان إلى الانشغـال بالاقتصاد، حتى صـار انشغالـه ذاك وسواسيـاً. ضاقت الحيـاة بما رحُبت، واقتصر الاختيار فيها – مثلما يحدث في أزمنة الحرب – إلا على بديل واحد، لا شيء سواه: إما أن ينخرط الإنسان في الجندية، أو أن يجـد نفسه فـي أحد المستشفيات، معطوبـاً. ففي الأرجنتين، مثلمـا فـي العديد من الـدول الأخـرى، صـار لعبـارة «أنْ يحيا الإنسـان» مدلول ضيقٌ، هو إما أن يكون عامـلاً، يشتغل بتوقيت كامـل، أو أن يكـون مقصيـاً ومهمشاً. ومن ثمة، صـارت العزلة الباركـة بجِرانِهـا على مُدُننا، وخيمة؛ إن عزلـة الفرد الرهيبة، هي

واحدة من بيــن المآسي، التي تولّدتْ عن سمة العجلة، وعن عيار الكفاءة efficacité، اللذين يميّزان عصرنا.

إن أول نتيجة مأساويــة ينبغي التجنّد لمعالجتها، دون تقاعس أو إبطــاء، آفــةُ تبخيس الذات، وهي – لعمــري – أخطر آفة يعاني منهــا الإنسان المعاصر؛ ومن ثم فهي تشكّل الخطوة الأولى، التي تساهــم في قيادة الإنسان – حتماً – إلى الخضوع، وإلى أن يغدو مجــرد عنصر نمطي، في حشــد حاشد. فما عــاد الإنسان اليوم، يــرى ذاته علــى أنه آثم أبــداً، وإنما صــار يعتبر نفســه بالأحرى، متورّطــاً فــي وجــوده se prend pour un engrenage، وهــو أخطــر الأمور، وأشدها فظاعة على الإطلاق. وليس لهذا التدنيس غيــر علاج واحــد: إنه تلك النظرة، التي حيــن يلقيها كل منّا على الآخريــن، لا ينبغي عليه أن يلقيها، لتقييم أهلية نجاحه الشخصي، ولا لتحليــل هذا السلوك أو ذاك مــن مجموع سلوكاته، وإنما من أجــل أن يتعرّف علــى ما هو إنساني فيــه، وأن يقتسمه مع الآخر، فــي احتضــانٍ كفيل بأن يمدّنــا بمشاعر الفــرح، الناجمة عن هذا الاكتشــاف، الــذي يفيدنــا بأننا نُكوّن جــزءاً لا يتجــزأ من خليقة كبرى، تشملنا أجمعين.

لــديّ اليقينُ بأنّنا سنتمكّن، لو استعدْنــا الثقةَ في الإنسان، من

الانتصـار على الخوف الذي يشلّنا، ويجعلنـا جبناء. لقد غامرتُ أنـا بنفسي، خلال سنوات بعينها، إلى حدّ الموت. فهل كان ذلك يـا ترى، مـن دون خوف؟ لا، إنما كنت أخـاف، إلى حدّ بدوتُ معـه متهوّراً، ومع ذلك لم أستطع التراجـع. فلو لم أفعل ما فعلته، مـن أجل رفاقـي، لأجل هؤلاء الفقـراء الذين التزمـتُ لفائدتهم، لكنـتُ ربمـا تخلّيْتُ عـن اختياراتـي. إننا لا نقـدم على ركوب المخاطـرة، حين نكون وحيدين، وبعيدين عن الناس، وإنما نفعل ذلـك فقط، حيـن نغوص في واقـع الآخرين، ولا نجـد فينا طاقة للرجـوع إلـى الخلـف. حينمـا اشتغلـت فـي هيئـة الكونـاديب CONADEP (اللجنـة الوطنيـة للبحـث عـن الأشخاص المفقوديـن)، كنتُ أرى في النوم بعض أعمـال التعذيب، التي لو أنّـي تعرّضـتُ لها بالفعل، لكنتُ قد فضلـتُ عليها الموت؛ وهي حصيلة تلـك الأعمال الوحشيـة الرهيبة، التي تعرض لها أناسٌ، ظللـت أمحضهم بمحبة كبـرى. فلكم كنت مـراراً، أستعد للنوم بأعصـاب هادئة، وبما يلزم من رباطة الجأش، غير أني ما ألبث أن أستيقظ مروّعاً ومفزوعـاً، لحظات بعد ذلك، فيتحير ذهني بشأن مسألـة الاستمرار في عملي بالهيئة؛ لكـن لا تمضي غير لحظات قصيـرة، حتـى تراني عاجزاً عن رفضـ الاستماع لهـؤلاء الناس، الذين ظلوا يلتمسون مقابلتي، للإنصات إليهم. لقد كان ذلك أمراً

مستحيلاً؛ إذ حتى لو أني حاولت الرفض، لفشلت بشكل تلقائي، لعـدم قدرتي على تخييب أمل هـؤلاء الآباء، الذيـن قُتِل أبناؤهم، بوحشية فظيعة.

لـم أكـن أقوى علـى فعل شيء من ذلـك القبيل، سـواءٌ رفضَ استقبـال هـؤلاء، أو الإنصاتَ إليهـم، لأنني كنـتُ ملتزماً معهم. بهـذه الكيفيـة بالضبـط، نستطيـع أن نمانع؛ فكلمـا واجهنا آلام الآخريـن، نصيـر شجعاناً؛ وحينئـذ فقط، تأخذ الحيـاة خاصيتها المطلقـة. إن الناس فـي الأغلـب الأعـم، لا تتحـرك فـي اتجاه الآخريـن، للالتفاف حولهم، حتى ولو كانت تواجه ما يجري في العالم، وما يتهددنا جميعاً؛ فنخسر بهذه الكيفية، إمكانية توظيف أنفسنـا فـي اللحظة المناسبة، ووضعها في المحـك، فنُضيّع علينا إمكانيـة الاستسلام للموت، ونحن قريـرو العين؛ ومن ثمة، نبقى خاضعين لأوامر مجتمع لا يحترم كرامة الإنسان، بالمطلق. يدافع الكثيـرون عن أطروحة عدم السماح للـذات، بالاكتراث لشؤون الآخريـن، لأن الأفـكار المثاليـة المطلقة، التي قـد يرفعها هؤلاء كشعار لهم، تؤول دوماً إلى الانحطاط، مثلها في ذلك مثل الحب الأفلاطونـي، الذي كلما تجسّد في شخص بعينه، تلوث، وتلطّخ. فـي هـذه الأطروحة – مـن دون شـك – بعض الحقيقـة، إلا أن

جـراح الناس مـا تنفك تنادي علينـا، كي نهبّ للقيـام بشيء ما، لفائدتها.

إنّ التدخّل لدى الآخر، يستتبع إبداعاً، وإعادة تجديد في نهج سيـرة الحياة، مقارنةً مع ما دأب الناس على العيش عليه؛ والحال، أن الإبـداع لا يصـدر إلا عن الحريـة، وهو لصيق أشـدّ ما يكون الالتصـاق، بحسّ المسؤوليـة. ثم إنه بالإضافة إلـى ذلك، بمثابة المُقدّرة الكفيلة بالانتصار على الخوف. إن إنسان ما بعد الحداثة l'homme de la postmodernité، كائـنٌ مغلـولٌ إلـى أساليب الرفاهيـة، التي توفّرهـا التقنية، وبالتالي فإنـه لا يتجرأ في الأغلب الأعم، على الإقـدام التلقائي على تجارب عميقة، من قبيل تجربة الحـبّ، أو التضامن؛ غير أن الإنسان بكيفية مفارقة، لن يتسنّى له العثـور علـى الخلاص، إلا حيـن يجازف بحياته مـن أجل قريبه، ومـن أجل إنسـان آخر، سـواء أكان جاره، أم الأطفـال المتخلّى عنهـم فـي الشوارع المأهولـة بالبرد، دون عنايـة ولا علاج، مما يتطلبـه سنهم؛ هـؤلاء الأطفال الذيـن سيحملون معهـم من دون شك، آثـار هذه التجربة المأساوية المريـرة، طيلة حياتهم. إن في العالم اليوم، مائتين وخمسين مليونَ طفلٍ متخلى عنه.

إن هـؤلاء الأطفال هـم أطفالنا، ومن ثم فـإن أمرهم ينبغي أن

يدفعنا إلى جعل مصيرهم، القضيةَ الأولى في مشروعات نضالاتنا، والقضيةَ الأكثر شرعية في مجموع نداءاتنا المطلبية.

مـن صميم انخراطنا التلقائـي لفائدة الأيتـام، يمكن أن تنبثق طريقـة جديـدة في التعاطي للحيـاة، حيث من الممكـن أن يغدو ضمنهـا الانكفـاءُ على الـذات، مسألة مشينـة ومخجلة، وحيث سيكـون بمقدور المرء، أن يكتشـف، وأن يخلق وجوداً مختلفاً. إن التاريـخ حصيلة كبرى لأعمال الانحـراف والجنون – بما في ذلك من حـروب، وأعمال اضطهاد، وتعذيب، وعسف غاشم – إلا أن آلاف الرجـال والنسـاء مـا ضحـوا بأنفسهـم، ولا يزالون يضحّـون، إلا بسبـب تلك الأعمال الجنونيـة، وذلك من أجل أن يحمـي كل هؤلاء وأولئك، مَن يعيش من الناس الضائقةَ الشديدة، والعـوز الكبير. إن هـؤلاء الرجال والنساء، هم من جسّد ولا يزال يجسّد، في شخصه وسلوكه، فعلَ المقاومة.

والآن، علينـا أن نعرف – مثلما قال كامي – إنْ كانت تضحية هـؤلاء تضحيةً عقيمةً، أو هي على العكس خصبة؛ وهو – لعمري – السـؤال الـذي ينبغـي علـى كل ذي قلـب نابض بالحيـاة، أن يطرحه على نفسه، مع أخذ اللحظات الحاسمة في تاريخ البشرية، بعين الاعتبار اللازم. وبمجرد ما إن يُقدّم الجوابُ، ويُتّخَذ القرار،

حتـى يحدّد كل واحد منا المكان، الـذي دُعِي إليه، للخوض في الممانعـة؛ ولسـوف يتحصّل من كل ذلك، مقـدار لا يستهان به، مـن مجالات الحريـة المنتزعة انتزاعاً، والتـي بمقدورها أن تفتح للإنسان أبعاداً، كانت غير مأمونة، إلى ذلك الحين.

كذلـك هو الجسر، أي المعبر الذي ينبغي علينا أن نجتازه. لا يمكـن لنا أن نبقـى متمسّكين بالماضـي، ومستلذين كثيراً بمنظر الهاويـة. إن عملية إعادة خلق الإنسان مـن جديد، وكذلك إعادة خلـق عالمه، ما عادت مجـرد اختيار واحد من بيـن الاختيارات الأخرى، وإنما صارت على هذا الدرب غير النافذ، الذي ينتصب أمامنـا اليـوم، عمليـة تدخّـل ملحّة وسريعـة، لمعالجة مـا ينبغي معالجتـه، ومـن ثمـة لا يمكنها البتـة – مثلها مثـل ميقات ولادة الصبي في أوانه – أن تؤجل إلى موعد لاحق.

يجد الناس في أنفسهم، وهم يواجهون الآفات الكبرى، القوةَ التـي تسمح لهـم بتجاوز مقدراتهم الذاتيـة العادية، وهو ما برهن عليـه مثـلاً، جميعُ هؤلاء الرجـال والنساء، الذيـن قاوموا بمجرد صمودهـم وشجاعتهم، أعتى الطغاة في قارتنا اللاتينو – أمريكية، وانتصـروا عليهـا. إنّ الكائن الإنساني ليعـرفُ كيف يفتح، وسط الحواجـز والعقبات، سبلاً جديدة لتدفق الحياة، لأن مجرد صدْع

بسيـط، هو صدعٌ كافٍ لتتولّد منه الحيـاة، من جديد. وفي إطار هـذه المهمة، يغدو من باب أولـى وأحرى، رفضُ كلّ ما من شأنه أنْ يخنـق الوثبة الحيويـة، التي نستطيع أنْ نفجّرهـا من دواخلنا؛ كمـا أنـه من بـاب أولى أيضـاً، الدفاع عـن ذلك التقليـد، الذي يلهمنـا، ويكشف لنا عن الجانب المقدّس في الإنسان، مثل ذلك الدفـاع الذي أقدمت عليه الشعـوب، التي كانت ترزح تحت نير الاحتـلال، ببسالـة كبرى؛ ومن باب أولى كذلـك، عدم السماح لأي كان، بحرماننـا مـن فضل لحيظـات الحرية القصيـرة، التي يمكـن أن ننعم بهـا، إما ونحـن نقتسم الطعام مع مَـن نحب، أو نحس بها في عملية التآزر مع تلك المخلوقات، التي تحتاج إلينا، أو أثنـاء نزهـة في غابة، أو عـن طريق الإقرار بفضـل عناق؛ ومن بـاب أولى أخيراً، إظهار القدرة على الإقدام، وكأنه ينبغي علينا أن نقفـز مـن بيت من البيـوت، الذي تلتهمـه النيران. هـذه بالطبع، ليسـت أفعال عقلانية، ولكن من غيـر المهم أن تكون كذلك، أو لا تكون، لأن المشاعر هي ما سوف ينقذنا.

لا يقـوى العالم كله، على فعل أي شيء مهما كان – للتصدي بالمنع – لذلك الإنسان الذي يغني، وسط المأساة والبؤس.

***

خاتمة:

القرار والموت

كلّ ساعةٍ منْ وقت الإنسان، هي حيّزٌ حيٌّ من الوجود، لا يسنَح لنفسه لـدى المرء، [كي يتصرف في غُنْم ما يترتـب عنـه]؛ إلا لمـرة واحـدة وحسـب؛ ومن ثم، فهـو فرصة غير قابلـة للتّعويض، على وجه الإطلاق. وفـي هـذا بالـذات، يكمـن ضغطُ الحياة، كما تكمنُ عظمتها، وإمكانيةُ غمْـرِ اندثاريـة الزمن المنفلـت منّا، ببعض اللحظات المطلقة، بحيث إنّنا

إن الموت - ذلك الحدث المنفلت، وغير القابل لأن يُمسك به، والذي يتحقّق بينما نحن خاضعون له - هو فعلٌ يجري خارج دائرة الواقع، بين ربوع مملكة أخرى.

م. زامبرانو

كلمـا التفتنا ننظر إلى الخلف، إلاّ يظهـر لنا ذلك الطريق الطويل، الـذي قطعنـاه في السابـق، وكأنما هـو سلسلةٌ متواليـةٌ من الأيام المقدّسـة، وقد سجّلتْ حضورَها الاستثنائـي المميز، في مراحل ولحظات مختلفة من وجودنا.

إن إيقـاف مجـرى الحيـاة فائـق الوصـف، ليس مجـردَ أمرٍ مستحيل فقـط، وإنما هو قد ينقلب علينـا انقلاباً عكسياً، كذلكَ – إن نحـن اسْتطعنـا تحقيقَـه – لنسقـط بتلقائية، بين فكّـيْ أشدِّ الكآبـات المعروفة قتامةً؛ وقد تتوالـى علينا الأيام رتيبة، ليس فيها أدنى سموٍ روحي، بل قد تصبح فائضة أكثر عن اللزوم، وقد يصل بنـا الأمـر ببساطة، حدّ التبخيس من قيمتهـا، لأننا قد لا نرى فيها أي شـيء ذا بال، من شأنه الحـدوث. إنّ حياة الإنسان قد تتقلّص فـي مجرد تلـك السعـادة، التي يكـون بمقـدوره تحقيقَها، وقد يصبـح أبهى أشكال الوجـود على الإطلاق، شبيهـاً برحلة طويلة الأمد، على متن سفينة باذخة.

أعتقـد بأن أهم ما في الحياة، هو الإخلاص لما يعتقد الإنسان أنـه قـدرُه الخاص، والذي لا يكشف له عـن نفسه، إلا في خضم تلـك اللحظات الحاسمة مـن الوجود، أي عند تلـك النقطة التي تتقاطع فيها الطرق، ونعيش أثناءها لحظة وجودية عصيبة، إلاّ أنها

مع ذلك تلك اللحظة، التي ما تنفك تقدّم لنا الاختيارات الأساسيّة في الحياة. إنها لمن أهم لحظات حياتنا على الإطلاق، لأنّ الاختيار لم يكن – قبلها – متاحاً لنا، وما كنّا قادرين لا على رؤية ما يقع أمام أنظارنا، ولا على ما كان يحدث خلفنا، وكأنما ضبابٌ كثيف ظلّ – في تلك الآونة الحرجة – يُغشّي على أبصارنا، أو كأنما فُرض علينا أن نختار ورقةَ اللعب الحاسمةَ في الجولة كلها، بينما عيوننا مُغلقة.

إن هذا هو على وجه التقريب، ما يحدث لنا اليوم، بعد أن أدركَ ملايينُ الناس بأنه من المُلحّ اتخاذُ القرار الحاسم، حتى ولو لم يكن قد تبيّن لهم في الأفق، ذلك البصيص الضئيل من الضوء، الذي من شأنه أن يهديهم إلى السبيل السوي. لذا، علينا بعد أن نتوحّدَ في الإخلاص والوفاء للآخرين، وبعد أن نتوحّد في الرغبة المطلقة، التي تنشدّ إلى عالم أكثر إنسانية، أنْ نقاوم. وسيكون هذا وحده كافياً، كي ننتظر ما قد تخبئه لنا الحياة.

كنتُ وأنا شابٌّ، قد خاطرتُ بنفسي كثيراً، من أجل الحرية، فعشتُ نتيجة لذلك، بعض اللحظات المشحونة بالخوف، إلى حدّ أنّي ما عدتُ أثناءها، أدري ما الذي كان عليّ فعله أبداً، ولا كنت مستوعباً لما قد ينجم عن هذا أو ذاك، من جملة الاختيارات

الحاسمة، التي لا يمكننا البتة، أنْ نُقيّم إزاءها الأحداث والوقائع، باتزان عقلي كامل. إنني لأستعيد صورتي من جديد، عهدئذ، فلا أراني إلا ككائن ظلّ يجري، تارة إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف، على امتداد دربٍ ضائع، دون أن يعثر أثناء ذلك الجري العبثي، على أي دليل يؤكد له بأنه كان بالفعل، يسلك النهجَ السويّ. لقد كنتُ أمضي من غير هدى وحسب، إلى أن أذنتِ اللحظةُ الحاسمة بالظهور، وهي تلك اللحظة التي فَرَض عليَّ فيها قرارُ الروح نفسه، فاعتصمت به اعتصاماً، دون أن أعبأ بطبيعة العواقب المترتبة على ذلك.

إن القيم هي ما يرشدنا، ويُسهم في اتخاذنا للقرارات الكبرى. إلا أن العديد من الناس مع الأسف، إما بسبب شروط العمل غير الإنسانية، أو بسبب التربية، أو نتيجة لعامل الخوف، غالباً ما لا يتجرؤون على الحسم في الاختيارات، التي تتلاءم مع ميولهم، وتتوافق مع ذلك النداء الداخلي، الذي قد يُصغي الإنسانُ إليه من خلال الصمت، الذي يغلّف حنايا روحه. كما أن عدداً عديداً من الناس كذلك، لا يتجرؤون على الوقوع مرات تلو أخرى، في الخطأ. ومع ذلك، ينبغي أن يعلم الجميع بأن الوفاءَ لنداء الروح، ذلك النداء المُلغِز، هو بمثابة ذرع الميزان، حيث يجري الوجود

كله، خاصة حينما يحظى المرء بمتعة العيش بحرّية.

ثمـة فـي حيـاة الأمـم، كما فـي حيـاة البشـر، بعضُ اللحظات الحاسمـة. وإنّنـا لنعيش بالتحديـد، الآن، إحـدى تلـك اللحظـات الحاسمة، بكل ما قد ينجم عنها من مخاطر ممكنة. غير أن لكل مأساة وجههـا الإيجابي المضيء، خاصة إذا استطاع الإنسانُ أن يتحمّل عثرة الحظ، باعتداد كبير بالنفس، ودون أن يخون قِيَمه الكبرى.

تجتـاز الثقافـات، مثلمـا تجتاز حيـاةُ البشر، بعضَ الحقب الخصبة التي تتوالـى فيها فتراتٌ من الألم، وأخرى مفعمةٌ بالفرح والحبـور، تحت سماء واحدة؛ وتتّبـع الشعوبُ وقائعَ الحياة، من خـلال نظرةٍ صادرة عن الأجيـال السابقة، وتُدْخِلُ التغييراتِ التي تسمو بها، إما على تأويل، أو على معنى معين.

غيـر أننا لا نعيش نفسَ الحالة؛ إن لحظتنا الراهنة على العكس مـن ذلك، هـي لحظة مخيفـة وحاسمة معـاً، مثلمـا كانت عليه الأحوال عامة، لحظةَ الانتقال من عهد الإمبراطورية الرومانية إلى عهـد النظام الفيودالـي، ومن العصـر الوسيط إلـى مرحلة شيوع النظـام الرأسمالـي. وقد أذهب حـدّ المجازفة، قائـلاً إن لحظتنا الراهنـة، هي من أشد اللحظـات صعوبةً، ما دامتْ حياةُ الكوكب الأرضي نفسه، مهددةً بالخطر.

إنّ ثقافتنا لتُقدّم بعضَ الدلائل، التي لا تخطئها عينٌ، عن دُنُو نهايتها. إنها تضطر باستمرار، إلى إعادة اختلاق بعض الأحداث، وبعض الأنماط، وبعض المتغيرات الجديدة، لأن ما من شيء مما تنتجه دائمٌ، ولا خصيبٌ، أو مفيدٌ أبداً؛ حتى لنكاد نقول بأنها تشبه في حالها، حال ذلك المريض الهرم، الذي ما ينفكّ الأطباءُ يصفون له كلّ يوم، بعضَ الأدوية الجديدة، فتجد أسرتُه اليائسة من وضعه، نفسَها مكرهة على تغيير الأدوية والعلاجات، باستمرار. إنّ هذا بالضبط، هو ما يحدث لنا. إننا لنخلط بين ما يندرج ضمن الراهن Actualité، وبين ما يرتبط بالجِدّة nouveauté. غير أن الأهم من كل ذلك، هو أن لا يسود لدى المرء الاعتقاد، بأن هذا الوضع سوف يستمر على هذا النحو، وبأن هذا النمط من الحياة سوف يخلد.

إن قدرةَ حضارتنا على الإقناع بيقين ما، هي قدرةٌ شبهُ منعدمة، تقتصر فقط على تمجيد إيجابيات بعض منتجاتها المادية، التي تعرض بمئات الملايين من النماذج في الأسواق، دون مراعاة تذكر للنفايات المتراكمة جراء ذلك، من ساعة لأخرى، والتي لا يمكن للأرض استيعابها، أبداً. إن للعولمة، التي تسببت لي في كلّ هذا الكمّ الهائل من المرارات، وجهها الآخر

النقيض: ما عاد من الممكن الآن، أبداً، لا للشعوب ولا الأشخاص، أنْ تتخذ القرارات بمفردها. إن هذه اللحظة هي لحظة حاسمة، ليس لهذا البلد أو ذاك، وإنما للكوكب الأرضي برمته. وبالتالي، يغدو مصير الإنسانية جمعاء، ملقىً على كاهل هذا الجيل الذي ننتمي إليه، وهنا تكمن مسؤوليتنا التاريخية.

لقد قدّمَت أزمنةُ الغرب الحديثة للبشر، وهي الأزمنة التي تعيش اليوم لحظة الأفول، ثقافةً ظلت تعتبر بالنسبة إليهم، ملاذاً ووجهةً أرضية لشدّ ما تشوّقتْ سفنهم، للرُّسُو عليها. فتَحْتَ سماء تلك الأرض، اجتازتِ الخلائقُ بغبطة، بعضَ اللحظات المشرقة من وجودها، كما صمدتْ ببسالة، في وجه أهوال الحروب، وفظاعات المآسي العصيبة. أما اليوم، فينبغي علينا أن نقبل، وإنْ بعد لأي، بموات هذه الثقافة، وحلول فصلها الشتوي الحتمي؛ علماً بأنها نشأتْ برغبة ملايين الناس، ممَّنْ كرّسوا لها حياتهم، وسنواتِ عمرهم، وبحوثهم، ومجموعَ ساعات عملهم؛ مثلما شُيّدتْ كذلك، بدماء أولئك الذين سقطوا صرعى، إما في سبيل قضية عادلة، أو أنهم قضوا سدًى، على امتداد خمسة قرون، لأمر إما صالح أو غير صالح.

لقد بدأت الحداثةُ إبان عصر النهضة، ذلك العصر الذي لا

شبيـه لـه، ولا عصرَ آخر قادرٌ على مضاهاته، لا فـي ما أُنْجِزَ أثناءه مـن أعمـال إبداعيـة، ولا فـي مـا تحقّـق فيـه مـن اختراعات، واكتشافـات. لقـد أمسـى ذلك العصـر مرحلةً – مثـل الطفولة، بالضبـط – جـرت أطوارهـا تحـت أنظـار الأسـلاف. وكانت استقلاليته الحقيقية هي النزعة العقلانية.

لقـد طُوِيَـتْ دروب الثقافـة الإنسانيـة، حدّ الوقـوف على شفير الهاوية. وما فتئ هذا الإنسان الأوروبي، الذي دخل التاريخ المعاصر، وهو شديـد الثقة والاعتداد بنفسـه، وبقدراته الإبداعيـة الخاصة، أن خرج من ذلك التاريخ الآن، وقد تفتّتَ إيمانُه مِزَقاً مِزَقاً.

نحـن نقع اليوم، من غير أدنى شك، على مفترق الطرق الأشدّ أهمية في التاريخ كله، إذ ما عاد بمستطاعنا المضي أبعد مما فعلنا لحـدّ الآن، على طول هذا الطريق، الـذي خضنا فيه من قبل. لقد فقـدَ الحسُّ الإنسانـيّ بالحياة منذ مـدة لا يستهان بهـا، رونقَه؛ وتفجّـرتْ داخله بعضُ التناقضـات الهدامة: لقـد التهمَتْ نزعةُ التشكيك scepticisme روحَه. إن الإيمان بالإنسان، وبالقدرات المستقلة الداعمة لذلك الإيمان، تزعزعت. وانهارت أبراج المُثُل الشامخـة. وتكسّرتْ آمال عريضـة، كانت تسكن قلب الإنسان. فهـل كان مقدّراً على هذا الكائن، أن يُخاطر بسيادته، واستقلاله؟

وهـل سبق لتفاصيل هذه الساعة، التي أفـل فيها نجمُه، أن خُطّتْ في اللّوْح المحفوظ؟

علـيّ أنْ أقر بأنـي ظللتُ أؤمـن، وأؤكد منذ أمَـدٍ طويل، بأنّا أشرفنـا على النهاية. ويحدث لي أحيانـاً، أنْ أجدّد فورة الأفكار، التـي تؤمن بقرب وقوع الكارثة، وتذهب حـدّ التشاؤم بمستقبل الإنسانيـة علـى الأرض، إما بسبـب تأثير وقائع بعينهـا، مما يقع بالفعـل، أو بتأثيـر بعض ما ظـلّ يختلج في روحي. وفـي أحيان أخرى، يحـدث أن يلتبس عليّ الأملُ في قدرة الحياة، على إيجاد مـوارد أخرى للاستمـرار في الخلق، حين نـدرك ككل مرة، بأن الحياة تشملنا، وتتجاوز كلَّ ما يمكننا أن نكوّنه عنها من اعتقاد.

أعـرف بأن هـذه الرسالة سوف تثيـرُ حفيظـةَ البعض بشكل كبير، وقد كنت سألقي بها – أنا نفسي – جانباً، لمّا ظللتُ أخلط منـذ سنـوات خلت، بين فعـل الاستسلام والقبول. فـأن يستسلمَ المـرءُ هـو أن يجبـنَ، ومن ثم فـإن الاستسـلام هـو بمثابة ذلك الشعور، الذي يُبرّر عمليةَ التّرك، والتخلي عمّا يستحق أن يُخاضَ الصراعُ من أجله؛ إنه بكيفية من الكيفيات، انحطاطٌ ودناءة. بينما القبـولُ بالأمر طواعية هو الاحترام لإرادة الآخر، سواء تعلق الأمر بـإرادة البشـر، أو بإرادة القَدَر ذاته. لا ينشـأ القبول عن الخوف،

كحال الاستسلام، وإنما هو بالأحرى، مكسبٌ إيجابي.

لست أعلم إنْ كان هناك، قبل بيرديايف Berdiaef[1]، مَن تنبأ بأنّ عصراً وسيطاً جديداً سيحلّ علينا، [أم أن الرجل كان وحده، مَن تنبأ بذلك]. على كل، قد يكون ذلك ممكناً، بل وحتى مفيداً. إن بعض العناصر القديمة، التي تكشف عن بعض الشبه القائم بين زماننا والعصر الوسيط، لتشير على ما يبدو إلى تلك العودة، كحالة التفكك التي كانت عليه السلطة السياسية في روما، حيث أصيبتْ أعمال التّعهّد والرّعاية المتّبعَة عادةً، في اختيار ورثة القيصر بالتّدني، إلى أن بلغتْ حدّاً كبيراً من اللامسؤولية، وهو ما شكّل مظهراً انحطاطياً جسيماً؛ وكحال نزعة التشيّع الناجمة عن المخاطر الخارجية، التي ظلت محدقة بروما. لقد صار غياب الأمن في الحاضر، مثلما كان في الماضي، أمراً مستحكماً وسائداً، كما غدا العنف يطال جميع الرؤوس، التي لا يحتمي أصحابها بجدران عالية. وثمة أيضاً ذلك التقسيم الفاضح بين الأغنياء والفقراء، وتلك الوتيرة المتصاعدة للتديّن. في ما مضى، كانت طرق المواصلات هي التي تعرّضتْ للقطع، أما اليوم فستكون الكابلات câbles من دون شك، هي ما سيتعرّض للمصير ذاته، إلا في حالة ما إذا

اعتـرى تلك الكابلات «تحـوّلٌ في العقيدة»؛ وفـي هذه الحالة، سوف يكون التلفزيون قد وضع نفسه، في خدمة الناس.

نحن نتصور العصر الوسيط، وكأنه ليلٌ مدلهمّ دامسُ الأركان، وكأنه حقبة تاريخيّة قاسية، وعنيفة، فيها انطفأتْ إشراقة الحضارة الرومانية برمتها. لكن برديابيف يقول:

«ليسـ اللّيلُ أقلّ روعةً من النهار، ولا هـو ينتمي بنسبة أضأل إلـى الله؛ إن لمعان النجـوم يضيئه، وله من الكواشف الموحية، ما لا يعرفـه النهـار. إن الليـل ليتّصـلُ بقرابـة وثقـى مع ألغـاز أصل الوجـود، أكثر مما يتصل بذلك النهار. ثم إن الهاويةَ لا تفتح فمَها أبداً، أكثر فأكثر، إلا مع حلول الليل».

سيعنـي حلول الليل بالنسبة لثقافتنـا، خسارتَنا لبعض الأشياء، التي هي الضوء المنير لنا.

فمَـن ذا الـذي سيكون قادراً علـى هَدْينا، اليـوم؟ وأين هم يا تـرى، هؤلاء الأبطـال الذين استطاعوا أن يغيـروا مجرى التاريخ، اعتمـاداً علـى إيمانهـم وشجاعتهـم فقـط، من قبيل جـان دارك Jeanne d>Arc[2]، والشاب دافيد le jeune David ؟

ومثلمـا يقع في قرارة نفـس كلّ مخلوق، لحظةَ مُفارقةِ الروح

للجسد، حين يتغير بداخلـه شيءٌ ما، فينقاد بسلاسة إلى الإذعان، والقبـول بنهايته، سيكون من المهـم لثقافتنا اليوم، أن تذعن، وأن تقبل بنهايتها. ثمة في كل تحوّل من التحولات الكبرى، مثل ذاك الناجـم عـن حادثـة مـوت مثـلاً، طـوْرُ عبـورٍ ولحظةٌ يتـم فيها الانفصـال عن أشكال الماضي، والقبـول بأحكام التاريخ، بنفس الدرجـة التـي يتمّ فيهـا القبول بزمـن الشيخوخة. لـذا، فلنساعد الزمـن في اشتغالـه، كي تُسقَط الأقنعة، وتظهـرَ الحقيقةُ مكشوفةً للعيان. وإذا ما كنّا مدينين للناس بشيء ما، فإن ما ندين به لهم هو إمكانيـة جعل الحقيقة تكبر، وتَبين علـى نفسها مرة واحدة، وقد صارت كاملة غير منقوصة، دونما تشويه دعائي، وانتهازي.

إنـي لأحـزر بحماسـة عاليـة، إمكانيـةَ تحقّـق هـذه العودة المتجـدّدة، إلـى تبنـي طريقـة أخرى فـي العيش جديـدة. إنّ ما بمقـدوره سَعْـف الناس على اتخـاذ القـرارات الحاسمة لتحقيق ذلـك، هو حدوث اندفاعةٍ وعـيٍ قاعِيّة، تسهم في خلقها أحداثٌ متفرقـة، سرعان ما تتداخل فيمـا بينها: مثل بعض الصور بالذات، وبعضـ الكتـب المدهشـة، واختـلاط الناس بعضهـم ببعضـ، والشعور بالانتماء إلى وطن من الأوطان، رغم العيش في المهجر، ومثـل حـدوث شيء مختلـف من الأشيـاء، مما له قيمـة خاصة،

والـذي سرعان ما يدهشنا، فنتمثلـه في أعماق أنفسنا، وكأنما هو ضـرب مـن اليوتوبيا، التـي تحلّ بنـا. إن التغيير يحـدث، حينما ينصبّ نظرنا عليه، وحينما لا نترك أنفسنا بعد ذلك، تفتقده أبداً.

مـن غير الممكـن أن ننسى، وجودَ مَن ظلـوا في تلك الأزمنة القديمة، التي تعرّضتْ مُثُلها من ذي قبل للفساد، لا يؤمنون بشيء أبـداً، ووجـودَ مَن ظلّ يعمل، ويُحافظ علـى جذوة الأمل حيّة في قـرارة نفسه، وكأنما هو صيـادٌ متربص بالطريدة، وهو وجودٌ ميّز أعـداداً غفيرةٌ من الناس. إنّ القطائع في التاريخ، لا تكون خالصة وواضحـة، إذ ظـل المواطنـون الرومانيون، يحتكـون بجيرانهم البرابـرة، إلى حدود الأيام الأخيرة من عمر الإمبراطورية، إلى حدّ أنـه كان ينبغي أن ينتج عن ذلـك الاحتكاك بالطبع، المساهمة في خلـق نوع من التقـارب والمودة، بين هـؤلاء وأولئك. وبالكيفية نفسها، هنـاك مواطنون جددٌ بيننا، قدموا إلينا من ثقافات أخرى، أنماطُ عيشها مختلفةٌ عن أنماط عيشنا. وهناك اليوم مثل البارحة، ناسٌ كثيرون لا ينتمون لحضارتنا ما بعد الحداثية، منهم عددٌ كبير مقصي بشكل مأسـاوي، بينما عدد آخر منهم، وهو كبير كذلك، يعطـي الانطباع بأنـه مندمج فـي مؤسساتنا الاجتماعيـة، غير أن روحه منطبعة ببصمة قِيَم أخرى.

إن هذا المنظور perspective هو نوع من التراجع إلى الخلف recul، غير أنه مع ذلك تراجع ضروري، كي ينشأ عن ذلك الوضع منظورٌ آخر؛ إذ بهذه الكيفية، تتمّ عملية استئصال القشّ والأعواد الذاوية من الحقول، كي تتمكّن أرضها من استقبال بذار جديد، بعد أن تكون عارية.

فلو أننا نستطيع التمسك بهذا المنظور الجديد، وحسب!

ولو أنّنا – عوض أن نضيف لعصيدة اليأس والخوف، مقداراً إضافياً جديداً – نعثر في قرارتنا، على عشق الجِدّة التي تفصح عن تلك الثقة، التي من الممكن أن يشعر بها الإنسان إزاء الحياة، والتي هي نقيضُ اللامبالاة! فلنتوقف إذن، عن التّمتْرُس وراء حيازاتنا، التي تدعو للشفقة، ولنرغبْ – بحماسة شديدة – في عالم إنساني؛ عندها فقط، سنمشي على الطريق السوي.

بوضوح بشبه وضوح ضوء الفجر، الذي يعلن عن مجيئه من خلال عتمة الليل، يدنو مني الموت. إنه لحضورٌ متخَفٍّ، [وغير ظاهر للعيان، إلاّ أنه مع ذلك حضورٌ شفيفٌ].

تعرّضتُ عدة مرات، لخطر الموت. ومع ذلك، فإن ما شعرتُ به في السابق، ليست له أية علاقة بما أشعر به، اليوم. لقد

كان مـن الممكن أن يدهمنـي الموتُ أثناء واحـدة من المعارك، التي كنـت أخوضها سابقاً، أو على خلفيـة هكذا موقف نضالي؛ وكان المـوت سيعني لي مثلاً، فشلاً لأحد المشروعات الخاصة. لقـد كنـت سألقـى مصير المـوت بالصدفـة، من حيث لـم أكن أنتظـره، ومن ثمـة لن أكـون – مثلما أنـا الآن – موضوعاً تحت إشارتـه البتة، إذ مـا انفككتُ أنجرّ بطواعية منّـي، يوماً بعد آخر، صوب حفرة القبر.

إن مجـيء الموت اليوم، لن يكون حدثـاً مأساوياً، مثلما كان سيبـدو عليه الحال في ما مضى، لأنه لن ينتزع منّي الحياة انتزاعاً: ذلك أنني ما لبثت أنتظره، منذ مدة بعيدة.

فـي أيـام بعينها، كان الحـزنُ يتَملّكني نتيجـة الاعتقاد بقرب أجلـي. حينذاك، كنت أهب إلى المرسـم، فأغلق فيه على نفسي، وأنهمـك فـي الصباغـة والرسم بحميـة، وكلي ثقة فـي أن حِمامَ المـوت لـن يمتد إليّ، ما دامت اللوحة لـم تنته بعد، وكأنما كنت أستطيـع أن أغالطه بذلك الفعل. وكأنما بمقدور الموت أن يتفهم بواعث امتناعي عن الاستجابة له، وكأنما كان بمقدوري أن ألعب معـه دور بينلـوب Pénélope بنجـاح، لأقطع عليـه كل محاولة للتّقدّم نحوي.

أما الآن، وحينما يُيمِّمُ الناسُ في الشارع، صوب الجهة التي أتواجد فيها، كي يحيطوني ببعض الاهتمام والقُبَل، أو حينما ألبي دعوة من الدعوات، فأحضر فعاليات حفل استقبال، يكون قد نُظِم مثلاً، بمناسبة افتتاح لمعرض الكتاب، حيث تقضي الجماهير ساعاتٍ طويلة في انتظاري، ثم ما تلبث أن تحيطني بعد ذلك، بمشاعر المودة والتقدير الفياضة؛ فإن إحساساً مهيضاً لا يُقهر، يهجم عليَّ ويُشعرني بأني أوَدِّع الناس، قبل الالتحاق بالمثوى الأخير، فتُروّع – حينئذ – روحي.

لقد صرتُ لا أكترث إلاّ نادراً، لتفسير الأشياء تفسيراً منطقياً، وكأني ما عدتُ أجد في نفسي، متعةً تتسع لذلك، أبداً. إن «الإيمان – مثلما قال كيركيغارد Kierkegaard – يبدأ حيث ينتهي المنطق». إنني في اللحظات التي أنْطلقُ مبحراً أثناءها، في أعالي البحار، دون أن أطرح على نفسي أي سؤال مهما كان، لا أكون مكترثاً لا بالمطر ولا بالأنواء. أما حينما أعتصم في أوقات أخرى، ببعض العلوم الباطنية العتيقة vieilles sciences ésotériques، فإنني ألفي بين صفحات تلك الكتب القديمة، نفس الحرارة التي يلفّني بها هؤلاء المحيطون بي، والساهرون عليّ. حينذاك، ينتابني الخجل، كلما فكرت في أولئك المسنين،

الذيـن يعيشـون وحدتهـم القاتلة، وهـم يجترون كلّ مـا فقدوه، بحزن وحسرة.

كنـتُ في ما قبل، أعدّ المـوتَ امتحاناً لقسوة الوجود، معتبراً بأنـه يسْخَـر مـن صراعاتـي البروميثيوسيـة اليوميـة، ويُقلّص من حظوظ إنماء مشروعاتي. لقـد كان الموت في اعتقادي، فظاعة. وظـل يحلـو لـي أن أقول حينهـا، بأنه لـن يتمكّن منّـي، إلا حين تتدخّـل السلطة العموميـة، بزبانيتها الرهيبة، فتفتـك بي. لذلك، عبّـرتُ عن قـراري النهائي في عدم الاستسـلام أبداً، وفي خوض غمار الصراع حتى النهاية.

لكنني اليوم، وبعدمـا اقترب أجلي، وصار أدنى مني من حبل الوريد، وبعد أن أشاع بين حنايا نفسي كلها، فهماً خاصاً للوجود لـم أكـن قد أدركتـه من قبل أبـداً، فإنني مـا أنفـك أرى تاريخي المعاش كله، في هذه الليلة الصيفية [التـي أكتب فيها خاتمة هذا الكتـاب]، معروضـاً أمام ناظـري وكأنما هو مُمَـدّدٌ فوق راحتيْ يـديّ، كمـا لا أنفـك أرى بـأن تلـك اللحظات، التـي اعتقدت بضياعهـا ذات يـوم، هـي مـن بيـن أكثـر اللحظات إضـاءة، من مجموع الأوقات التي اعتقدتُ بأنها رائعة.

صحيح أني نسيت تفاصيل لا يستهان بها من حياتي، غير أني

فـي مقابل ذلك، ما زلت أحتفظ بذكـرى بعض اللقاءات، وبعض اللحظات التـي شملها الخطر، وبأسماء بعض مَن انتشلني من بين مخالب المرارات، وخيبات الأمل، وهي – لعمري – ذكريات لا تـزال بيـن يـدي، تنبض بالحيـاة. إنّنـي لا أحتفظ بتلـك الأسماء والذكريـات وحدها، وحسب، وإنما بأسمائكم وبذكرياتكم أنتم أيضـاً، يا معشر مَن آمن بي، وقـرأ كُتبي، وسيعينني من دون شك، كي ألقى الموت، وأنا قرير العين.

***

الهوامش:

1) نيكـولا بيرديايـف N. Berdiaev فيلسـوف روسـي يكتـب بالروسيـة والفرنسية، ولد في: 19 مارس/آذار 1874، وتوفي في: 24 مارس/آذار 1948. التحـق بالحـزب البولشيفي، بعـد أن آمن بالإيديولوجيـة الشيوعية، وصـار بعد ثـورة 1917، أستاذاً بجامعة موسكـو، غير أنه سرعـان ما فرّ من روسيا سنة 1922، ليستقر به في بلاد المهجر سنة 1924 (المترجم).

2) جان دارك Jeanne d'Arc، بطلة وطنية فرنسية، قادت في بداية القـرن الخامـس عشـر، الجيوش الفرنسيـة لمواجهـة الجيوش البريطانيـة، وبذلـك ساهمـت بحماسهـا الشديـد في وضـع نهاية لحرب دامت طويلاً، انتصرت فيها فرنسا (المترجم).

***

المحتويات

- مقدمة المترجم 7
- الرسالة الأولى: الصغير والكبير 27
- الرسالة الثانية: القيم القديمة 65
- الرسالة الثالثة: بين الخير والشر 99
- الرسالة الرابعة: قيم الجماعة 129
- الرسالة الخامسة: الممانعة 157
- خاتمة: القرار والموت 171

www.booksall.net

يصدر مجاناً
مع مجلة
الرافد

حكومة الشارقة . دائرة الثقافة والإعلام

إدارة الجوائز الثقافية

جائزة الشارقة للإبداع العربي

-الإصدار الأول -
(الدورة الرابعة عشره ٢٠١٠-٢٠١١)

حقول الجائزة

- **القصة القصيرة** (مجموعة قصصية لا تقل عن **١٢ قصة**)
- **الشعر الفصيح** (لا يقل عن **١٥ قصيدة**)
- **الرواية**
- **المسرحية**
- **أدب الأطفال** ، وتخصص هذه الدورة (لشعر الأطفال)
- **النقد**، ويخصص لهذه الدورة دراسة نقد الشعر (مدرسة الإحياء الشعري نموذجا)

جائزة الشارقة للإبداع العربي

لمزيد من المعلومات أو للاستفسار يرجى مراجعة العناوين التالية:
هاتف : 06 5671116 - 06 5010295
البراق : 06 5662126
الموقع الالكتروني: www.sdci.gov.ae

www.books4all.net